أحمد زياد محبّك

حمامات بيض...ونارجيلة

رواية

٢٠١١

دار الفرقان للغات ـ حلب

العنوان: حمامات بيض....ونارجيلة
المؤلف: الدكتور أحمد زياد محبك
النوع: رواية
تاريخ التأليف: ٢٠١١/٧/٢٥
موافقة وزارة الإعلام: رقم ٩٦٧١ تاريخ ٢٠١١/١٠/٢٩
عدد النسخ: ١٠٠٠
تاريخ النشر: ٢٠١١
منشورات: دار الفرقان للغات ـ حلب
هاتف ٢٦٣٢٠٤٩ ـ ٠٩٣٣٢٦٤٦٦٧

حقوق التأليف محفوظة للمؤلف

الفصل الأول
النزول عشر درجات

١. النارجيلة .....وفردة الحذاء الأسود

إيقاع هادئ حنون كأنه حبات العقيق تتدحرج، وعلى حافة النافذة المطلة على الحديقة حمام أبيض يزقّ أنثاه البيضاء، الريش الناعم في العنق يتموّج مثل موسيقا هادئة، منقاران أحمران يتلاقيان، وفي فناء الغرفة حبات ذرة بيضاء متناثرة هنا وهناك، مَنْ نثرها على أرض الغرفة إلى جوار السرير؟ تقترب منها حمامتان تتلوهما حمامتان وتمتلئ الغرفة بحمامات بيض جميلة، تدخل جدتي في ثياب بيضاء نقية، وجهها أبيض جداً، تفرح لرؤية الحمامات وهي تتبختر في أرض الغرفة، تطير لتحط على حافة النافذة، وهي تهدل في إيقاع مثل انسكاب قطرات الماء من نافورة صغيرة على سطح بركة هادئة، جدتي تتكلّم فتقول: "هذه الحمامات جميلة مباركة، عليك الاعتناء بها"، أخرج إلى الحديقة، أحمل حمامة، أمد يدي إلى أعلى، أضعها على حافة الشرفة المطلّة على الحديقة، حمامات كثيرات تتقافز تحلّق تعلو تحطّ تعود لتطير.

صراخ، صوت تحطّم موائد وصحون ووقوع أدوات وحاجات ثقيلة على الأرض كأنها تقع فوق رأسي، جاري هشام يخاصم زوجته كعادته كل صباح.

❖

أستيقظ، أفتح عيني، أين الحمامات؟ أحدِّق في فناء الغرفة، ألتفت إلى النافذة؟ الحمامات البيض تتقافز داخل القفص الحديدي الكبير في الحديقة؟! ليت لي الآن حمامة إلى جوار سريري، شيء ما يسقط من فوق في حديقتي فوق الزهور، أُسْرِع، أطلّ من النافذة العريضة المفتوحة، هل هو طائر سقط؟ ولكنه ليس أبيض، هو أسود.

أنظر، أرى فردة حذاء سوداء.

❖

بعد قليل سيرسل جاري ابنته تعتذر إليّ تطلب فردة حذاء أبيها، بل سينزل هو بنفسه بجلابيته البيضاء التي لا أحبّها يحمل نارجيلتَه، ليدخِّن في حديقة الشقة، ويعتذر، كعادته، لا بدّ من أن يسهر عندي مع نارجيلته في الحديقة مرة أو مرتين في الأسبوع، أما نزوله مع نارجيلته في صباح يوم الجمعة فهذا أمر عاديّ ومسلّم به، لطيف جداً رقيق جداً وودود، وهو الجار الوحيد الذي يزورني في العمارة من بين سكان العمارة الثلاثة، هو في الثلاثين، ينظر إليّ على أني والده، ليت والدي على قيد الحياة، كان جعله مديراً للمعمل، لا يعلم أن والدي هو صاحب المعمل، أو بالأحرى كان - رحمه الله - صاحب المعمل، هو هادئ وديع مطيع، في الظاهر، وعلى السطح، ولكنه

في الداخل والعمق قلق جداً ومتوتر وحاد المزاج، كأنه بركان، سطحه غابات ومروج وحول فوهته ثلوج بيضاء ناصعة، لكنه قد يقذف الحمم فجأة، هذه هي مشكلته.

❖

ويُقْرَع الباب، أفتحه، أدهش، أمامي عروس مثل اللؤلؤ بل هي لؤلؤ، يحملها جاري بيده، هي نارجيلته المفضّلة، يقول بوجه بشوش وهو يرتدي جلابية بيضاء كالكفن:

ـ صباح الخير، جاري الأعزب، نصيحتي لك، طول العمر ابق أعزب، هذه عروسي، ستبقى أنت من غير عروس، اليوم عطلة، ولا أعرف أين سأذهب، سأمضي هذا الصباح الجميل بضيافتك، في حديقتك الجميلة، حديقتك أصبحت جزءاً من شقتي.

ويدخل حتى قبل أن أقول له تفضل.

❖

أنا لا أحب الجلابية البيضاء، مع احترامي لكل من يرتديها، وبصورة أدق لا أحب أن أرتديها، أنا عندي جلابية بيضاء، محفوظة في الخزانة، منذ ثلاثين سنة، ربما أصبحت الآن صفراء، ما ارتديتها قط، هي في صندوقها منذ ما يقارب الثلاثين عاماً.

وإلى جوارها زجاجة عطر، هدية، محفوظة منذ ثلاث سنوت.

وهشام يزورني كل يوم أو يومين وهو في جلابيته البيضاء، وأنا أحبه، وأرتاح إليه، وإلى حديثه، يسليني، أحياناً أضجر منه.

❖

ونمضي إلى الحديقة، نقعد إلى جوار البركة، والماء يتقافز من نافورتها، أمامه نارجيلته، ممشوقة القوام، بيضاء متألقة، تتحلّى بلآلئ تتدلّى من حافاتها، والماء الأبيض النقيّ الشفاف يقرقر في زجاجتها البيضاء المتألقة. يتكلم وهو يتقلقل في المقعد، لا يكاد يستقر:

ـ هذه أفضل من الزوجة، هذه هي الزوجة الحق، لا حظ معي، فيها الماء والنار، في تعادل وتوازن، لا النار تشعل الماء، ولا الماء يطفئ النار، والفحمة في قمتها سوداء كالليل، ولكنها تشع حمراء كالشمس، وهي تحدثك متى شئت، وتصمت متى شئت، حديثها هادئ حنون، هو كركرة ومزاح، لا تطالبك بشيء، يكفيها قليل من الماء وقليل من النار، وهي إلى جوارك كالأم الحنون، هي أوفى من الزوجة وربما الأم، لا، الأم لا يمكن أن تجد مثلها.

ينفث دخان نارجيلته، ثم يضيف:

ـ أنا أهنئك، هذه هي الحرية، لا زوجة، لا نارجيلة، لا أولاد، لا عمل، أنا أهنئك، هذه هي الحياة.

❖

من المؤسف أننا في مطلع القرن الحادي والعشرين ولم نحلّ حتى الآن مشكلة الخلافات الزوجية، لا شك أنه مختلف مع زوجته من أجل أمور تافهة، والأكثر إيلاماً أنهما جامعيان ومثقفان، هو متخرج في كلية الاقتصاد والتجارة، ويعمل محاسباً في معمل الوالد، عليه رحمة الله، أو بالأحرى معمل السيد هشام، أصبح المعمل معمله، وجاري الطيب نفسه اسمه هشام أيضاً، زوجته في السنة الأخيرة في كلية الآداب، قسم اللغة الإنكليزية، تزوجها وهي في السنة الأولى، شجّعها على متابعة الدراسة، تعثرت سنة أو سنتين، كان يجب أن تتخرج السنة الماضية، أو التي قبلها، ولكن الانتقال إلى هذه الدار، والخلافات اليومية، والحمل والولادة والعناية بالبنت التي بدأت تكبر، كل ذلك أخّر تخرجها، وهو كل يوم يُثْقِل عليّ، بل يسلّيني، شاب طيب، قليل الخبرة، صادق، ودود، لا أعرف لماذا يخاصم زوجته كل يوم أو يومين، لا بد من الخصام مرة واحدة على الأقل في الأسبوع.

❖

أصمت، أنظر إلى فردة الحذاء السوداء، وقد سقطت إلى جوار زهيرات البنفسج الناعمة الخجول، قريباً من قفص الحمامات البيض، يتنبّه إلى موضع نظراتي، ينفث دخان النارجيلة، ويتكلّم:

ـ سامحني، لا أعرف كيف قذفت حذائي، أنا أعتذر إليك، صدّقني، لا تظن أني ساديّ أو متوحّش، أنا أحب زوجتي، أنظر في عينيها، وأنا في حالة الغضب، فأحس أني أحبها، ولكن الغضب هو الغضب، الله يلعن الشيطان، سأعترف لك، أنا المذنب والمخطئ، ولكن ماذا أفعل؟ اسمح لي حتى أحكي لك، عن سبب الخصام.

❖

لا أنسى يوم ناديتها، وهي على الرصيف، في يوم ربيعي مثل هذا اليوم، فالتفتَتْ، ناديتُ: "سناء"، لا أعرف يومها كيف ناديتها، على أي مقام: رصد نهاوند صبا؟ ولا أعرف بأي إيقاع؟ كان قلبي يخفق، وصوتي يتقطع، فالتفتَتْ، التفاتُتها عطِرة، شعرها تناثر على ظهرها، وتألّق جيدها، وردّت:"وكيف عرفت اسمي؟"، لم يكن سؤالاً إنما كان دهشة، في عينيها حقول خضر تدعوني إليها، وعلى الفور أتبعتْ بصوتٍ هامس دافئ: "صوتُك كأنه صوتُ شقيقي"، أجبتُها:"أنا شقيق روحك، أنا أعرفك، أعرف اسمك، أنت تأتين إلى مكتبةِ الرُّوّاد لشراء مراجع باللغة الإنكليزية، صديقي صاحبها، أنا أقعد عنده دائماً"، وسرتُ إلى جوارها، غمرني شذاها، أول مرة

أشمّ هذا الشذى، لا أعرف، هل هو عطر أم عبق الأنثى، طرف ثوبها رفَّ مع النسيم، أحسست به يلمسني، أو أنا ألمسه، همسات ونسمات ولمسات، نغمٌ من عوالم بكر جديدة والشارع يمتد أمامنا إلى حيث لا ينتهي، وبكل حماقة قلت لها:"كنتُ في الحافلة، فلمحتُك، نزلتُ منها على الفور"، وبكل بساطة سألَتْ: "ولماذا؟"، وكأنها أحست بالخطأ فاستدركتْ: "أنا ذاهبة إلى بيت جدي، هنا في المنعطف التالي"، قلت لها:"ولكن سنمشي إلى آخر الشارع، ثم نرجع"، كان يوم الثلاثاء، قبل أن أودّعها قلت لها:"نلتقي الثلاثاء القادم، هنا في نفس المكان في نفس الوقت"، ونظرتُ إلى ساعة يدي كانت الخامسة، لم تجب، أضَفْتُ:"والثلاثاء بعيد، سنلتقي الأحد، وسيكون موعدنا دائماً الأحد والثلاثاء"، ودّعتها، ورجعتُ أمشي على مهل، اتنسّم الهواء الربيعي، كل شيء اختلف، الدنيا واسعة رحبة جداً، جميلة، وأنا عصفور يحلّق بجناحيه، وصلت إلى النقطة التي التقينا فيها، وقفت فيها درت، التفتت، هي مركز الكون، هي النقطة المقدّسة.

❖

- حدثني عن سبب الخصام مع زوجتك، هل نسيت؟ أين ذهب بك الشرود؟

- لا، ما نسيت، ولكن، سأحكي لك: مدير المعمل أعطاني أمس كشوف الحسابات والدفاتر الأساسية للمعمل، كانت في سيارته، أوصلني إلى البيت بسيارته، وأعطاني كل الكشوف والدفاتر، وأعطاني دفاتر جديدة بيضاء، مثل الحمامة البيضاء، وطلب مني ترحيل كل الحسابات إلى الدفاتر الجديدة.

- أمر سهل، هل تريد مساعدتك؟

- أشكرك، مقامُك أكبر من أن تساعدني، أنت في مقام الوالد، والمشكلة ليست في الترحيل، المشكلة في التزوير، طلب مني التزوير، يريد الإعلان عن خسارة المعمل، ليسرّح نصف العمال، ويتخلّص من دفع الضرائب، صدّقني، سهرت إلى الفجر، وما فعلت أي شيء.

. اعتذِرْ، اطلبْ منه تكليفَ أي عاملٍ أو محاسب غيرك.

- إذا لم أنفّذ فأنا أول المسرّحين ، وسيطردني من الشقة، أنت تعرف، الشقة التي أسكنها هي ملكه، أجّرني الشقة بأجرة زهيدة، وأنا أعيش فيها مع زوجتي وابنتي منذ سنة ونصف السنة، ولكن ما عشت في هذه الشقة ساعة سرور، الشقة كلها شؤم، والله زوجتي حمامة، مثقفة، وصاحبة ذوق، وابنة أسرة كريمة راقية، أنا نفسي لا أسمع صوتها، أنا المخطئ، سامحني، هذا هو سر غضبي في هذا الصباح، صدّقني لولا أنت كنت أنا انتحرت، أنا أهنئك بحياتك، لا زوجة ولا ولد.

❖

والآن، وأنا أمام النارجيلة، أحنّ إلى زوجتي، وأشتاق، وهي فوق، أتمنى لو أضمّها إلى صدري، لو أنام على صدرها، أستشعر دفئها الناعم، وأتحسّس نبضها الهادئ، كم أنا محتاج إليها، هي النارجيلة الحقيقية، الماء والنار فيها معاً ممتزجان متداخلان، أريد أن أقضمها كلها، أن أبتلعها، ليتنا أنا وهي في أدغال إفريقية، لأفترسها كلها، من فرقها إلى قدمها، حتى أصابع قدمها شهية، يا إلهي، أنا متوحش حقيقة، ليتني أقتلها وأنتهي منها، أنا حقيقة مجنون، ولكن المجنون لا يعرف أنه مجنون، المجنون يقول أنا عاقل، والعاقل يقول أنا مجنون، ما دمت أعي جنوني فأنا غير مجنون، ليتني أجن، لا أعرف لماذا أستيقظ في الصباح وأنا لست أنا، في الليل أنا هادئ، في الصباح مع الاستيقاظ أنقلب، لا أعرف. مرة قالت لي: أنت مثل الدكتور جيكل ومستر هايد، حكت لي قصة رجل صاحب شخصيتين مختلفتين اختلاف الليل والنهار، بل إن شخصيته في النهار تختلف عن شخصيته في الليل، حقيقة أنا كذلك. أرجع من المعمل، وأنا فحمة أشتعل تعباً وغضباً، من المعمل ومن المدير، أنطفئ في جسدها. ثم سرعان ما أشتعل غضباً، ولا أعرف كيف أنطفئ.

❖

أمضي إلى المطبخ أحضر دلّة القهوة المرّة.

❖

نعم، أنا العجوز أعيش الآن وحدي، لا أم لا زوجة لا ولد، حتى جدتي وهي أحب إليَّ من أمي وأبي تركتني وماتت، الله يرحمها، وكان لي زوجة. اليوم زارتني جدتي في الحلم، هذه ليست حياة، أشتهي أن يكون عندي زوجة مثل زوجتك، زوجتك طيبة وهادئة، مرّ على سكنك سنة ونصف كما قلت، وما سمعت صوتها ولا صوت خطواتها.

❖

أصب له من القهوة المُرّة، وهو يقول لي:

ـ المدير سببُ شقائي كله، جعل حياتي كلها مُرّةً مثل هذه القهوة المرة، ضع الدلة كلها هنا إلى جواري بعد إذنك، لأتجرَّعها كلها، المدير لم يجعل حياتي مرّة فقط، المدير سمّم حياتي كلّها.

❖

ليست حياتك فحسب، بل حياتي، وحياة أبي، وأمي من قبل، وجدتي، أنت لاتعرف، وربما حياة كل من عرفت وأحببت، حياة كل من حولي وحوله، هذا تاريخ عمره أربعون سنة من سنوات القحط.

❖

الحمامات البيض في القفص تهدل، تزقو، بخفقات بسيطة من أجنحتها تطير في الفضاء المحدود، هي لا تطير، بل تقفز من ركن في القفص الحديدي إلى ركن.

❖

هشام بجسمه الضئيل الناحل داخل جلابيته البيضاء يتقلقل، المقعد أوسع منه، وأكبر، كأن المقعد قفص هو محبوس فيه، لا يكاد يستقر في جلسته، وهو ينفث دخان النارجيلة، ويتأمل، لا أعرف هل يتأمل الماء في دورقها أم النار في قمتها فوق المعسّل. أصب له القهوة، فيدلق في حلقه ما في الفنجان حتى القعر، وهو يقول:

- هات اسقنيها من يد الرضا مُرّةً ...تبعث الجنون.

❖

دلال تقول لي:"املأ لي الفنجان حتى الحافة"، تضعه إلى جانبها على المنصة الصغيرة، ترشفه بهدوء بهدوء، حركتها موسيقا هادئة، أناقة وشفافية وسحر.

٢. الجدة...والمأمونية والشعيبيات

من الشرفة فوقنا تطلّ علينا حمامة بيضاء، هي ابنتُه، في الخامسة من عمرها، "هناء"، اسمها "هناء"، طالما نادتني "جدِّي"، وطالما رمت إليَّ بطائرات ورقية، وهي تقول:" دارك حلوة يا جدي"، ولا بد في كل صباح من أن تأتيني لتقول: "جدِّي، أريد وردة"، فأفسح لها الطريق، وتركض إلى الحديقة، لتقطف وردة، وتسرع عائدة إلى الشقة، تصعد الدرجات العشر، كأنها فراشة بيضاء صغيرة.

أحياناً تقول لي:"أريد حمامة بيضاء، لماذا حبستها في القفص". تقول لي:"ماما تقعد وراء الحاسوب دائماً، مثلك، بابا لا يحب الحاسوب، بابا يقرأ في الجريدة"، وتارة تقول لي:"أنا أعرف كيف أفتح الملف في الحاسوب، وأكتب الحروف والأرقام، ولكن لا أعرف القراءة"، وتارة أخرى تقول لي:"أنا أعرف الدخول إلى الشبكة، أنا أرى البحار والسفن، والألعاب، وأعلام الدول".

❖

هي بضع حمامات بيض، والدي يرحمه الله كان يتركها ترفّ في الفضاء، تحلق فوق العرقوب، تسبح في سماء حلب، ثم ترجع، ثم تكاثرت من حولنا العمارات، فصنع لها هذا القفص الكبير، فيه تعيش، تهدل، تتكاثر، لا يذبحها، يهدي منها زوجين زوجين لأي زائر يطلب زوجين من الحمامات البيض.

كم أحب عنق الحمامة البيضاء، ترفعه، تحركه بالتفاتة رشيقة، في العنق فتلات من الشعر، كأنه طوق، والرأس ناعم لطيف، والعينان تلمعان. معها الصباح

يغدو أحلى، أتأملها وأنا أحتسي القهوة المرّة، وأسمع همسات النافورة في البركة والماء يتطاير موسيقا بيضاء شفافة.

كم أحب الفراشات البيض، أحياناً، ولاسيما في الصباح، من النافذة الواسعة المفتوحة على الحديقة تدخل فراشتان بيضاوان صغيرتان، تتراقصان في فضاء الغرفة، تتطايران، مثل نغمتين متموجتين، مثل زوجين من راقصي الباليه، أستبشر بهما خيراً، أقول هو صباح جميل، جدتي كانت تسمي الفراشة: بشّارة، هي حقاً بشّارة، هي تبشّر بالخير، وكل صباح تأتيني "هناء"، فراشةً صغيرة، تبشِّرني بالخير، هي جدتي، هي روح جدتي تأتيني كل صباح.

❖

هناء تميل بكامل جسمها من الشرفة، كأنها تودّ الهبوط إلينا، تهتف بفرح:

ـ بابا بابا تعال، اصعد، جاءت جدتي، جاءت لنا بمأمونية وشعيبيات، اليوم عطلة، تعال اصعد، ماما تجهِّز المائدة.

يصمت، ينفث دخان النارجيلة، ينفثه بقهر واشمئزاز، ثم يغمغم:

ـ شيء مقرف، كرهت حياتي، هذه أمي جاءت لتحرجني.

ويرفع رأسه نحو الشرفة ويصيح:

ـ أنا قاعد هنا مع النارجيلة والجار، لن أصعد.

وتغيب ابنته، وسرعان ما ترجع لتطلّ علينا حمامة بيضاء:

ـ بابا اطلع، جدتي وأمي وأنا، كلنا ننتظر.

ويردّ وهو يشير بيده كأنه يصرفها:

ـ نفَسُ النارجيلة جديد لن أتركه، حتى ينتهي.

يلتفت إليَّ ويقول:

ـ أسوأ يوم عندي هو يوم العطلة، أكره فيه حياتي، لولا أنت أنا كنت انتحرت، فضلك عليّ كبير.

❖

أنا حياتي كلها عطلة، لا يوم عمل عندي، ولا يوم عطلة، ليس لي سوى هذه الحديقة، أرعى الزهور، أسقيها، أغيِّر ماء البركة، أطهو طعام يومين، أو أخرج لشراء طعام يومي، ولا أحد يزورني غيرك، ليت لي طفلة مثل طفلتك، تعبث بالزهور، تكسر الأواني الزجاجية وتقلب المزهريات. كان في حياتي طفلة، ليست ابنتي، ولكنها ابنتي، ليلى، هي الآن بعيدة عني، في أمريكة، تكاد خيوط الاتصال بها تنقطع، في المناسبات تتصل بي، أو ترسل إلي رسالة.

وكان لي مَنْ أحببتها، ثم فقدتها، وكان لي زوجة، وكان لي جدة، وكان لي أم. ليت لي الآن زوجة عنيدة شريرة مشاكسة تملأ حياتي، وأنت تشتهي حياتي؟ دنيا كلها تناقضات، مثل هذه النارجيلة، ومثلما تقول: نار وماء. نحن كتلة من المتناقضات المتجددة باستمرار.

❖

ـ هل تعرف ياجاري، مرت سنة ونصف السنة، وأنا أسكن هنا في هذه الشقة، وكل يوم أزورك، أو كل يومين، ولكن لم أسألك لماذا لم تتزوج حتى الآن، أشعر أنك في مقام الوالد، وأنا أخجل من سؤالك، وعندك هذه الشقة الواسعة، وهذه الحديقة الجميلة، وكأنها جنة، هل يمكن أن أسألك اليوم؟.

❖

في الحقيقة أخجل أيضاً من سؤال جاري العجوز، هو في منزلة الأب، أخجل من مصارحته، أنا أفرط في ممارسة الجنس، لا بد في كل يوم من علاقة، مرة أو مرتين، لا يواتيني النوم إلا بعد ممارسة الجنس، وأمارسه فور استيقاظي، شيء ما بداخلي يشدني إلى الجسد، لا أستطيع المقاومة، ينبع من داخلي، قد تكون زوجتي غير راغبة، أو غير مهتمة، أو قد تكون متعبة، لا يهمني ذلك، أندفع برغبتي الداخلية، لا بتحريضٍ منها ولا استثارة، ترى هل يؤثر هذا في صحتي؟ هل يؤثر في مقدرتي الجنسية مستقبلاً؟ كيف يمكنني أن أسأله؟، وهو في عمر جدي، وهو الأعزب، ترى ما هي حياته الجنسية؟ كيف يشبع رغباته؟ كم أنا غبيّ؟!.

❖

ـ أنت نكأت الجراح.

ـ تفضل صارحني.

ـ لهذا حديث طويل، اصعد إلى شقتك، من غير مطرود، أمك وزوجتك وابنتك، الكل ينتظر.

ـ لن أصعد، حتى ينتهي نَفَسُ النارجيلة، وحتى أعرف لماذا لم تتزوج حتى الآن؟.

ـ أنا اعتبرت موضوع الزواج منتهياً منذ ألف عام.

❖

هل أخبره أنه كان عندي زوجة، وكنت، وكنت؟؟

❖

ـ اعذرني إذا سألتك، هل أنت؟

يطرق رأسه خجلاً، ويأتي بإشارة من يده تدل على العجز الجنسي. أجيبه وأنا أضحك:

- لا، لا، أنا مثل الثور، ولكن مدير معملك هو السبب.

❖

حقيقة هو طيب جداً، وبريء، هل سيصدق أني مثل الثور؟ لا أظنه سيصدق، هل أحدثه عن ثوب زفافها الأبيض وعن ابنتها؟ لا مجال هنا للحديث، ليس من ضرورة، تناقضات، حقيقة، هي تناقضات، أنا متزوج وغير متزوج، لا أعرف كيف أبوح له، لا ضرورة، ليس المجال مناسباً.

❖

- وهل مدير المعمل أحد آلهة الإغريق؟ أو هو ملك أو إمبراطور؟ هل هو نابليون أم نيرون؟ حتى ترك في حياتك هذا التأثير كله.

- ليته كذلك.

- وإذن؟

- والدي، رحمه الله، هو صاحب المعمل، أنت لا تعرف، احتاج والدي إلى مدير للمعمل، فرآه يومئذ شاباً نشيطاً، في الخامسة والعشرين، وقد تخرج حديثاً في كلية الحقوق، فعينه في منصب المدير، وسلّمه كل شيء، مثلك أنت تماماً، والغريب في الأمر اسمك مثل اسمه: هشام، الفرق هو أنك متخرج في كلية الاقتصاد والتجارة وهو متخرج في كلية الحقوق.

يتقلقل في مقعده، كعادته، لا يكاد يستقر، ينفث دخان النارجيلة، ثم يعلق:

- فرق كبير بيني وبينه، أنا الآن مجرّد محاسب، ووالدك كما قلت عينه المدير العام، على كل حال الفرق كبير، هو يملك كل شيء، وأنا لا أملك أي شيء، وهو بطول هذا الحائط، ووزنه أكثر من مئة وخمسين كيلو، وأنا قزم، ناحل، مثل هذه النارجيلة، ولا أكاد أملأ هذا المقعد، أنت لا تعرف المقعد الجلدي الضخم والفخم الذي يقعد فيه، لا يكاد يتسع له، ستضحك إذا حدثتك، أحياناً أسأل نفسي: إذا مات هذا الرجل فأي تابوت سوف يتسع له؟ وأحياناً أقول: يبدو أنه لن يموت، على كل حال، لماذا لم يسلمك والدك إدارة المعمل، أوْ لم يعينك والدك رحمه الله في وظيفة محاسب على الأقل، مثلي أنا، بدلاً منه؟.

❖

أعرفه أكثر منك، مديرك صاحب المعمل، أو المستولي عليه، دمّر كل شيء، ويريد لنفسه كل شيء. أشقر، طويل، لم تحن ظهره الأيام، لم تسقط شعرة من رأسه، ذقنه حليقة دائماً، بشوش الوجه، يقابلك بالابتسامة، بل يضحك، تنفرج أساريره عن ضحكة دائماً، بمناسبة وغير مناسبة، أظنه سيضحك ولو كان يوقع حكماً بالإعدام، سيضحك ولو كنت تخاصمه، هي عادة، وجهه بريء، لا يمكن أن

يُوحي لك بشيء، يستطيع أن يقنعك ببيع بيتك وطلاق زوجتك والتخلّي عن أولادك، وهو يبتسم، بل يضحك، وأنت تفعل كل شيء وترضى، لشخصيته جاذبية وسحر، تراه فتحس كأنه سيعيش إلى الأبد، نظرة عينيه ثاقبة، يحبّه العمال كلهم، وتحبّه العاملات أكثر، لا أعرف؟! هل السر فيه، أم في الناس، أين تكمن المشكلة لا أعرف؟! هو رب عملهم، رزقهم في يده، يكفي أن يحجب عنهم ساعات العمل الإضافي، لا ليغضبوا أو ينقموا أو يثوروا، فهذا ما لا يخطر لهم على بال، بل يكفي أن يلوح لهم بأنه سيلغي ساعات العمل الإضافي ليقبِّلوا يده مطالبين ولو بأجرة ساعة واحدة، مقابل ثلاث ساعات من العمل، مرة أخرى، كل شيء مثل هذه النارجيلة، ماء ونار، في مصالحة أبدية، فليس ثمة مشكلة، لذلك دخِّن، يا صاحبي، وانفث الدخان.

❖

ـ سأحكي لك، أنا كنت في أول المرحلة الإعدادية، وبعد ست سنوات، توفي والدي، وأنا في آخر المرحلة الثانوية، دون العشرين، كنت أحضِّر لامتحان الشهادة الثانوية، أنا الوحيد لوالدي، والوريث الوحيد، توفي والدي فجأة ولم يتجاوز الخمسين، من غير أن يكتب وصية، كانت وفاة والدي صدمة لي، دخلت إلى المعمل بكل تواضع وقلت:"أريد أن أشغل المكان الذي تركه أبي"، ضحك ضحكة عالية، ثم قال:"لا أنت ولا أبوك ليس لكم أي مكان ولا شغل ولا أي شيء في المعمل".

❖

ليلى توفي والدها بُعَيْد تقديمها امتحان الشهادة الثانوية، لم يفرح بنجاحها، وهي لم تفرح، وأمها لم تفرح، وكانت البنت الوحيدة لوالديها، والوريث الوحيد. ليلى الآن في أمريكة. كانت وفاة والدها صدمة، جدها قال لي:"يجب أن تحل أنت في محل والدها". دنيا، تتناقض، تتشابه، لكنها في الحقيقة لا تتكرر، يبقى هناك ما هو جديد، المعاناة، وحدها على الأقل، هي الجديد، نحن بشر.

❖

يكاد يقفز من المقعد الواسع العريض، يكاد يطير بجلابيته البيضاء، كأنه طائر مذبوح، يسأل مذعوراً وهو ينفث دخان النارجيلة:

ـ ماهذا؟ هل سلبك المعمل؟ هل المعمل ملك والدك؟ وهشام..؟

ـ نعم، فوجئت، كل شيء مسجل باسمه، لم يمض على استلامه المعمل مديراً له سوى ست سنوات حتى كان قد جعل كل شيء باسمه، مع العلم بأن والدي لم يكتب له أي تفويض رسمي ولا وكالة عامة ولاخاصة، كيف استطاع جعل كل شيء باسمه، لا أعرف؟؟

ـ ارفع دعوى عليه.

ـ رفعت، نعم، رفعت عشر دعاوى، ووكلت ثلاثة محامين، كل شيء تمّ تزويره، وعنده محاميه المشهور.

ـ عبد الجبار، محامي المعمل؟

ـ نعم، هو نفسه، ما يزال عبد الجبار محاميه الخاص، وهو معروف بقدرته على التغلغل إلى بعض القضاة من أصحاب النفوس الضعيفة، مع أنهم قلّة، وهم موجودون دائماً في كل مكان وزمان، أنا شخصياً نلت الشهادة الثانوية، ودخلت كلية الحقوق، وتخرّجت، ولكن، ولله الحمد لم أعمل محامياً ولا قاضياً، المشكلة طبعاً ليست في القضاة ولا في المحامين، أكثرهم شرفاء، والقليل منهم كما تعرف، الضعف البشري موجود، في كل مكان في العالم، وفي كل زمان، ولكن المشكلة خارج دار القضاء، المشكلة أكبر، مثل هذه النارجيلة، ماء ونار، لا الماء تطفئ النار، ولا النار تشعل الماء، والفحمة السوداء تشع مثل الشمس، ونحن بين الماء والنار، وبين الفحمة والشمس، نحترق، سواء مَنْ يدخن ومَنْ لا يدخن.

يضحك، يرخي جسمه في المقعد، يهمد، مثل حمامة بيضاء لفظت الروح، ينفث دخان النارجيلة، يعلق:

ـ ولذلك تجدني أدخن، لأنه لا بد من الاحتراق والاختناق، كما قلت، سواء كنت من المدخنين أو لم تكن، ولكن اسمح لي أن أسألك كيف تعيش؟.

أصمت، ألتقط أنفاسي، ثم أتكلم:

ـ هذه العمارة بأدوارها الثلاثة، وشققها الثلاث بالإضافة إلى هذه الشقة في الدور الأرضي كلها ملك والدي، كانت كلها ملكه، هو الذي وضع مخططها، والدي في الأصل مهندس عمارة، ورث عن أبيه قطعة الأرض، وبنى فوقها هذه العمارة، وجعل في كل دور شقة واحدة.

❖

لا أنسى يوم كانت هذه العمارة من أجمل العمارات في منطقة العرقوب كلها، بناها أبي في أعلى منطقة في العرقوب، تشرف على حلب، كنت وأنا في الحديقة أطل على حلب كلها، أراها من وراء الزهور وشجيرات الورد، ابتناها أبي هنا قريباً من المعمل، منطقة العرقوب هي في الواقع منطقة معامل، ولكن عمارة أبي كانت متميزة، كان يريد أن يكون سكنه قريباً من معمله، وكان يريد أن يكون سكنه هادئاً مريحاً جميلاً، ولذلك اختار لنفسه الدور الأرضي، وجعل هذه الحديقة الجميلة.

والعرقوب هو الهضبة المرتفعة، وكذلك منطقة العرقوب في شرق حلب، هي أعلى منطقة فيها، وفي جنوب لبنان أيضاً تقع منطقة جبلية تسمى العرقوب، وبالقرب

من مطار طرابلس الدولي بليبيا منطقة تسمى العرقوب، وكل هضبة رملية عالية في الإمارات تسمى العرقوب.

في أول يوم باشرت فيه عملي في مؤسسة البريد سألني زملائي عن معنى العرقوب، رحت أبحث في المعاجم ودوائر المعارف، دهشت عندما عرفت أنه اسم لنظام شمسي فيه شمسان: الأولى تبعد ٣٧٨ سنة ضوئية عن الأرض، والثانية تبعد ١٣٧ سنة ضوئية، واسمه بالإنكليزية Arkab وهو مأخوذ عن العربية، ومن الطريف أنه اسم الوتر الذي يربط القدم بالساق، وهو أقوى وتر في الجسم، وشتان ما بين الكاحل في أسفل الرجل، ونجم في أعالي السماء.

والعرقوب أيضاً هو الطريق الملتوية في الجبل، أو الانكسار فيه، وهو اسم لرجل في يثرب كان عنده نخل كثير، وله أخ فقير، جاءه يطلب بعض الثمر، فوعده حتى يعقد، ثم جاءه فوعده حتى ينضج، ثم جاءه فوعده حتى يصبح رطباً، ثم جاءه فوجده قد جناه كله، ولم يعطه شيئاً، فقيل: "مواعيد عرقوب أخاه بيثرب"، وصار مثلاً، ومما زاد في القهر، أن الزمن حفظ اسم الأخ الغني البخيل، عرقوب، ونسي اسم الأخ السائل الفقير. ومشهور جداً في الأساطير اليونانية كاحل أخيل، وقد أصبح مثلاً عالمياً، وهو يدل على نقطة ضعف ما في الإنسان، وآخيل بطل يوناني قديم شارك في حرب طروادة، يمتاز بالقوة الخارقة، وكانت أمه، وفق الأسطورة، قد دلكته، وهو طفل صغير، بدهن خاص، ثم وضعته في النار، ثم حملته من كاحله، وغمسته في نهر الخلود، فأصبح ممتنعاً عليه الموت، ولكن باريس بن بريام شقيق هكتور عرف نقطة ضعفه فضربه في كاحله فقضى عليه، منتقماً منه لأخيه هكتور.

اليوم ضاعت عمارتنا بين ما أحيط بها من عمارات، سدت عليها المنافذ، ولم تعد تشرف على حلب. ضاعت في ضجيج المعامل، ضاعت بين يدي هشام المدير الذي هشّم كل شيء.

*

ـ وهل سطا المدير على العمارة كلها مثلما سطا على المعمل؟

ـ لا، أبي باعه الشقة التي تسكن فيها أنت الآن، باعه إياها بالتقسيط، ليساعده، كما يساعدك الآن مديرك، وليكون قريباً منه، وأبقى الشقتين، في الدور الثاني والثالث، أنا عملت بعد التخرج في كلية الحقوق رئيس الديوان في مؤسسة البريد، وبقيت في الوظيفة ثلاثين سنة، إلى إحالتي على التقاعد، قبل خمسة أعوام، ثم اضطررت إلى بيع الشقة في الدور الثاني، أنا الآن أعيش من أجرة الشقة في الدور الثالث، راتبي التقاعدي لا يكفي مصروف سيارتي، وفي هذه الشقة، التي هي في

الدور الأرضي، أنا ولدت، أبي، الله يرحمه، يحب الورود والزهور والمياه، هذه الزهور كلها من غرسه.

❖

والدي كان رحمه الله يحب الطبيعة، مع أنه مهندس معماري وابن مدينة، لذلك فضل العيش في هذا الدور الأرضي، ليحيا مع الورود والزهور، كأنه وردة من الوردات، وحقيقة، فقد كان وردة، ومات في عمر الورد، كان يمضي ساعات في هذه الحديقة، يقلب التربة بيده، يسقيها، يقلّم شجيرات الورد، يغرس أزاهير جديدة، وأنا هنا الآن أعيش مثله مع الحمائم البيض في الواقع وفي الحلم ومع الجار الطيب وابنته هناء الزهرة البيضاء ومع هذه الزهور والرياحين أتنسم شذاها في الصباح والمساء أرى تفتحها وأشم عبقها، ولو تخلّى لي الآن المدير عن المعمل لما قبلته، مديرك الآن يعيش بين صخب آلات النسيج وضجيجها ورائحة الزيوت المحترقة والصدأ وجلبة الحديد ويلوث يديه بالأوراق النقدية يعدّها ويحصيها ويملأ بها خزانته الحديدية، هنيئاً له ذلك العيش، أنا هنا هذه هي حياتي، حياة والدي وجدتي. لكن، هل أنا مقتنع بهذا حقيقة، هل أقوله لنفسي، كي أقنع نفسي، كي أُرضِيَ نفسي؟؟؟

ولكن، للأسف، لم أقدِّر هذه الحياة، ولم أعرف حقيقتها، ولا حقيقة والدي إلا بعد وفاته، في مرحلة المراهقة، وأنا في الثانوية، كنت ثائراً عليه متمرداً، ولم أدرك حقيقة المدير إلا بعد وفاة والدي أيضاً.

❖

ـ ثم ماتت أمي بعد سنتين من وفاة أبي، من حزنها على أبي وكمدها على فقدان كل شيء، والأنكى من هذا كله أن مديرك الذي سطا على المعمل عرض عليها الزواج، فرفضت، ثم ماتت غماً رحمها الله وأنا في الثانية والعشرين.

ـ حكاية عجيبة.

ـ نعم، هي مثل حكايات ألف ليلة وليلة، بالضبط مثل حكايات ألف ليلة وليلة، والدنيا كلها حكاية.

ـ ولكن النهاية في حكايات ألف ليلة وليلة سعيدة.

ـ نعم، نهايات الحكايات في ألف ليلة وليلة وكل الحكايات سعيدة، بخلاف الواقع، لإرضاء الناس، ولينسوا واقعهم المرّ الحزين، ولينسوا ظلم الملك شهريار، الذي كانت شهرزاد تحكي له كل ليلة حكاية وهي مهدّدة بأنه سيسلمها في الصباح إلى الجلاد، إذا لم تحكِ له حكاية جميلة ومسلية ومشوقة، ولذلك كانت تجعل الحكايات ذات نهايات سعيدة إرضاء للملك وخداعاً للناس ولتضمن عيشها ليلة أخرى.

ـ ولكن حكايات ألف ليلة وليلة كانت منذ ألف عام، وفي عهد شهريار، الذي كان كل ليلة يتزوج صبيّة، ثم يسلم رأسها للجلاد في اليوم التالي، كما قلت، ثم اختلف الزمان، نحن الآن في القرن الحادي والعشرين وانتهى عهد شهريار.
ـ هذا في الظاهر، العالم كله ما يزال يعيش في عهد الملك شهريار، بدءاً من مدير معملك، حتى آخر مدير في القطب الشمالي أو الجنوبي، على كل حال ليكن في علمك أن السياف ما كان يقتل زوجات شهريار، بل كان يوزعهنّ على أعوان الملك وخدامه ورجال القصر وحرسه الخاصين، كان السياف رحيماً بهن وطيِّب القلب، هل رأيت أجمل من هذه الرحمة والطيبة؟! وهناك رأي يقول إن زوجة شهريار لم تخنه مع العبد الأسود، كما تحكي الرواية المشهورة، وإنما أخوه هو الذي أوحى له بذلك، وأرسل العبد الأسود برسالة إلى زوجته، فلما رجع من رحلة الصيد مع أخيه وجد العبد في غرفة الزوجة، لا في الفراش معها، فبادر إلى قتلهما، هل رأيت إلى أي حد نحن نتّهم المرأة وإلى أي حد نبرِّئ الرجل، ولا سيما إذا كان هو الملك.
ـ ولذلك أنت لم تتزوج، الآن عرفت، وذلك العجوز، مدير المعمل، تزوج منذ عامين صبية في الخامسة والعشرين، وهو في السبعين.
ـ أعرف، تزوج ابنة أحد العمال عنده.
ـ والآن يريد الإعلان عن خسائره، ليصرف العمال، كلما سمعت خصامي مع زوجتي فاعرف أن وراء هذا الخصام مشكلة مع صاحب المعمل.
ـ على كل حال انتهت الآن مشكلتك مع زوجتك، جاءت أمك، هيا اصعد إلى شقتك، يا ابن أخي، من غير مطرود، كما يقال.
ـ صدقني، ليس لي مشكلة مع زوجتي، مشكلتي هي مع مدير المعمل، وأظن هذه المشكلة لا حلّ لها، مثل مشكلتك، غير الموت، موته هو.
ـ الموت ليس حلاً، الموت يصنع مشكلة جديدة، بل مشكلات، وهو بحد ذاته مشكلة.

❖

ينفث دخان النارجيلة، يتقلقل في مقعده، يهمس:
ـ أحس الآن بالخجل من اسمي، ليت أمي ما سمّتني: "هشام".
ـ أنا أرجّح أن يكون أبوك هو الذي سماك، لا أمك، الأم عندنا لا تسمي ولدها، وهي التي تحمله وهي التي تلده، لا شك أن والدك سماك على اسم أبيه أو جده، وفق العادة، هل اسم جدك أو جد جدك هشام؟
ـ ليس في الأسرة من يحمل هذا الاسم، لا أعرف لماذا اختاره أبي.

❖

في تاريخنا القديم هاشم بن عبد مناف، وهشام بن عبد الملك، وفي تاريخنا الحديث هشام مدير المعمل، وهشام جاري الطيب.

ولكن أين هشام من هشام، أين هشام مابعد التاريخ من هشام ما قبل التاريخ، أين هشام القرن الحادي والعشرين من هشام القرنين السابع والثامن الميلاديين، أين هشام القزم من هشام العملاق، أولئك أبطال التاريخ والأساطير، وهؤلاء أبطال العصر.

هشام الأول أو هاشم، واسمه عمرو بن عبد مناف، كان يهشم الخبز ويقدمه لقومه في سنيّ القحط، وهو سيد قريش، في الجاهلية، ابتدع رحلة الشتاء إلى اليمن، والصيف إلى الشام، يكرم الحجيج القاصدين مكة، يسقيهم ويطعهم، يهشم لهم الخبز، وهشام الثاني، هشام بن عبد الملك بن مروان، أحد خلفاء بني أمية الأقوياء، يحسن اختيار الولاة، يحسن تربية أولاده، يحسن التصرف في أموال الرعية ولا يبددها، يحسن لقاء الناس والاستماع إلى شكاواهم، يحسن ضيافة العلماء يدعوهم إلى ترجمة الكتب عن الفارسية والرومية، كان يهشم الجهل والفساد.

❖

أسامينا .. شو تعبو أهالينا تلاقوها .. و شو افتكرو فينا
الأسامي كلام .. شو خص الكلام .. عينينا هني أسامينا
تلج و ورق طاير والمسا حزين
وضباب وقناطر نحنا بردانين
لملمنا أسامي أسامي عشاق
من كتب منسيي وقصايد عتاق
وصرنا نجمع أسامي ونولّع
تصارو رماد وما دفينا..
الأسامي كلام .. شو خص الكلام .. عينينا هني أسامينا

❖

حتى اسمي بكري لا أحبه، أنا أحب أن أُنادى "بكر".

لا أحب الماضي، ولا أريد العيش في ظلاله، وأعرف أن الماضي لا يمكن أن يعود، ولا يمكن أن يتكرر، ولكن هؤلاء الأقزام، جعلوني أمجد أولئك العمالقة، حتى أولئك العمالقة أنا لا أمجدهم، ولكن أمجد المعاني والقيم التي حملوها، وحققوها في حياتهم العامة والخاصة. هؤلاء الأقزام أفسدوا علينا حياتنا، واتهمونا بالتعلق بالماضي، لذلك يتجه الجيل الجديد إلى الأنموذج الغربي، يتلمسه في لاعب كرة القدم وفي الممثل والمطرب، لا في العالم والمستكشف والمخترع.

❖

في لحظة أحس أني على خطأ، وأن المدير هشام على صواب، هو الحقيقة، هو الواقع، هو القوة الفاعلة، هو الذي قدم للمجتمع والحياة، تسعة عشر ولداً وعدداً من الإناث، ما عدت أتذكر، بنى وعمّر وأسس وأنتج وأثّر، هو الذي يعيش، ومن حقه أن يفترس، لأنه الأقوى، نعم الغزال جميل، رشيق لطيف، عيناه مكحولتان، قفزته ساحرة، ولكنه لا يستحق غير العطف والشفقة، الأسد أجمل منه، لبدته عظيمة، نظرته خارقة، مخالبه أعظم، جسده مبنيّ بقوة، خطوته ترتج لها الأرض، زئيره يملأ الآفاق، هو الأجمل والأقوى، هو يستحق الإعجاب والتعظيم والتقدير، بل ربما التقديس، ولاسيما حين تراه وهو يطبق بفكيه على عنق الغزال. كل الصور والرسوم على الجدران والقصور منذ فجر التاريخ تقدم هذه اللوحة، الأسد يقضم عنق الغزال. لتدل على القوة والانتصار وقهر الأعداء. ولكن، هل العدوّ هو الغزال؟

والناس يمجّدون القوة، يقدرون القويّ، يحترمونه، بل يقدسونه.

وأنا مرة قضمت شفة روضة، أما هشام فقد ابتلعني.

❖

أقول لنفسي: وجود هشام المغتصِب القوي ضروري، وجود هشام المغتصَب الضعيف ضروري، كلاهما ضروريان للحياة، كوجود الأسد والغزال، كوجود الثعلب والأرنب، كوجود شجيرة الورد، وشجيرة القتاد، هذه هي الحياة، هذا هو قانون الطبيعة، هذا هو قانون المجتمع. ثم أرجع إلى نفسي فأقول: لا، هذا كله غير صحيح، نعم، هذا هو الواقع، ولكنه ليس الحقيقة. يا إلهي، كم نحن متناقضون؟!.

وعلى كل حال، هشام مدير المعمل جدير بهذا الاسم، فقد هشّم كل شيء، هو الهشام حقاً، أما جاري الشاب الطيب فليس له من اسمه حتى الآن على الأقل أي نصيب، فهو لا يقدر على تهشيم شيء، آه، لعله قبل قليل هشَّم بعض الصحون، ولكن هل يستطيع مستقبلاً فعل شيء؟ لا أظنه سيهشم شيئاً، إلا إذا هشّم نفسه.

❖

ويقرع جرس الباب، وقبل أن أنهض يسأل، وهو يتحرك في مقعده، كمن يقعد فوق زجاج محطم:

- أنا أعرف لا أحد يزورك، من تتوقع؟

❖

الآن، لا أحد يزورني سواك، ليتك جئت قبل ثلاثة أعوام، لرأيت من يزورني. دلال، الأناقة والسحر والجمال، هي التي كانت تزورني. ثم غابت، طارت، وحللت أنت، ورميت فردة حذائك الأسود.

❖

ـ لا أعرف؟
ـ أخشى أن تكون الشرطة!!
ـ ولماذا الشرطة؟
يرد وهو يضحك:
ـ لعلك اتصلت بالشرطة وشكوتني؟!
ـ صدقت، وستصل مفرزة كاملة، ولكن بعد يومين، وعلى كل حال إذا وصل رجال المفرزة وشاهدوا النارجيلة فسوف تبطل الشكوى.
ـ وسيقعد رجال المفرزة كلهم معنا.
يضحك، وأضحك معه، ثم أقول له:
ـ أنا سعيد الآن لأنك بدأت تمزح، هل رأيت؟ أمك فوق، وستحل لك كل المشكلات، وستتناول مع زوجتك وابنتك وأمك المأمونية والشعيبيات.
ـ أنا لا أحب المأمونية، ولا الشعيبيات، لا أحب الحلويات، أحب الفول المدمس والحمّص، هو أحب إلى قلبي وأشهى، أنا أحب كل ما هو حامض ومر وقابض، مثل حياتي، لا أحب الحلويات.
ويقرع الجرس ثانية، وأسرع إلى فتح الباب.

❖

أمه تزوره في يوم الجمعة، تحمل له المأمونية والشعيبيات، هنيئاً لمن كانت عنده زوجة، وله أم تزوره، ليت أمي على قيد الحياة لتزورني، ليت جدتي تزورني الآن، تحمل لي المأمونية مرة ثانية والشعيبيات، حملتها لي مرة واحدة، ثم ماتت، جدتي الآن تزورني في الأحلام، تزورني بثيابها البيضاء، أحياناً أراها تحمل لي أرغفة خبز بيضاء، لا أعرف معنى هذا؟ ولا أستطيع تأويله، هنيئاً لمن كانت عنده أم عجوز تزوره، أو جدة. لا أعرف لماذا لا تزورني نجوة في الحلم؟ حتى ولا نوال ؟ أما روضة فلا أتوقع زيارتها.

❖

لا أنسى المأمونية والشعيبيات. صباح زواجي أحضرت لي جدّتي المأمونية والشعيبيات، نزلت إلى السوق بنفسها، اشترتها، حملتها إليّ، لا يمكن أن أنساها، كان فجراً مختلفاً، لا يمكن أن أنساه. بعد أقل من سنة توفيت جدتي، اطمأنت إلى زواجي، ماتت قريرة العين.

❖

هذه عادات أهل حلب، لا بد من الحلوى في صباح العرس، ولا سيما الشعيبيات والمأمونية، الشعيبيات محشوة بالفستق الحلبي، رقيقة مشبعة بالسمن، مثل الذهب، مرشوشة بالقرفة يسطع عبقها الشهي، والمأمونية مطبوخة بسمن الغنم البلدي الأصيل،

وعبقها يملأ الآفاق، مثل شعاعات الشمس في أفق واسع، والقشطة بطّة بيضاء تعوم في الطبق. وبعد الحلوى ينتابك نعاس شهيّ، وخدر لذيذ، ولا بد من القهوة المُرّة تنعش الفؤاد.

كم أنت شهيّة يا حلب.

❖

دلال، أقدم لها الحلوى فتعتذر، مرة واحدة تناولت قطعة حلوى صغيرة، لا أعرف بأي طريقة كانت تمضغها. فمها مطبق، شفتاها تتحركان بلطف، كأنها تتعاطى قبلة. ويوم قضمت التفاحة، قالت:"لا يجوز أن ندخل فيها السكين". ثم زرعت البذرة في تربة الحديقة، زرعتها في قلبي. ثم غابت.

٣. الجدة....وعروس المستقبل

سيدة عجوز تطالعني بوجه أبيض مشرق وبغطاء على رأسها أبيض، مثل حمامة، كأنها جدتي.

- تفضلي ياخالة.

- ابني عندك، الله يصلحه، عنده زوجة مثل حمامة وهو لايقدّرها، هل تسمح لي بالدخول حتى أقنعه بالعودة إلى زوجته.

- تفضّلي، تفضّلي، نحن نقعد هنا في الحديقة.

هي مثل جدتي، صوتها هو صوتها، وجهها هو وجهها، مشيتها هي مشيتها، يا إلهي، كم يتشابه العجائز، أي صباح جميل هذا؟! ليت جدتي تدخل عليّ الآن. تمضي نحو الحديقة، ينهض جاري، يسرع نحو أمه قبل أن تصل إلى الحديقة:

- أهلاً أمي، لماذا نزلت؟ أنا يجب أن أصعد إليك.

- أنا لأجلك ولأجل بيتك وزوجتك مستعدة لأن أنزل مئة درجة، وأصعد وأنزل مرة ثانية وثالثة.

يُقبِّل يدَها، يقبِّل رأسها، وهو يقول:

- سامحيني، أرجوك سامحيني، كنت سأصعد فوراً، ولكن النارجيلة أخّرتني، سأصعد الآن فوراً معك.

تشير إليه بيدها، كما يشير شرطي المرور للسيارة كي تقف بسبب مخالفة كبيرة، تتوقف تقول له:

- عندك، لا، لا تستعجل، يجب أن نقعد ونتفاهم أولاً.

يطأطئ رأسه أمامها، يطبق راحتي كفيه بعضَهما على بعض، ينحني قليلاً، مثلما يفعل اليابانيون عندما يسلم بعضُهم على بعض، يهمس:

ـ أمرك يا أمي، فهمت، فهمت، هذه آخر مرة، لن أخاصمَها بعد اليوم، أقسم لك يا أمي، وهذا جاري شاهد على كلامي.

أشير إلى مقعد عريض، أقول لها:

ـ تفضلي ياخالة، استريحي.

تقعد، يقعد جاري قبالتها، وأقعد أنا في مقعد آخر مقابل لهما، نافذة الغرفة واسعة مفتوحة على الحديقة.

تصمت هنيهة، تلتفت إليه، تمدّ إليه يدها وقبضة يدها مغلقة على نقود ورقية:

ـ هذه هدية لك.

يردّ يدها في محاولة منه للاعتذار.

ـ أنا أعرف: راتبك قليل، وزوجتك ما تزال طالبة جامعة، ومصروفها كبير، والمال هو سبب كل المشكلات، خذ، واستعن بها على أمورك، ما أردت إعطاءك إياها أمام زوجتك.

❖

هذه هي جدتي، نعم هي نفسها، تزورني في الحلم تحمل لي الخبز، وتزور جاري في اليقظة تحمل له عشرة آلاف ليرة، أنا لا أريد خبزاً ولا عشرة آلاف ليرة، ليت جدتي تقرع الآن الباب وتدخل.

❖

ـ يا أمي، دعاؤك لي وحده يكفيني.

ـ والله يا ابني صليت الفجر، وقعدت إلى طلوع الشمس أقرأ في القرآن الكريم، ثم دعوت لك، ولكن الدعاء وحده لا يكفي، المال ضروري، وأنا أعرف، أنت مدقق حسابات في معمل صغير، وظيفتك ليس فيها مجال لا للرشوة ولا السرقة ولا النهب.

ـ لا يا أمي، لا تقولي هذا الكلام، حتى لو كان في وظيفتي ألف مجال للنهب والسرقة والرشوة لما فعلت، أنا ابنك، وأنت ربيتني، والدي توفي وعمري ثلاث سنوات، أنا لا أعرفه، أنا تربيتك أنت.

ـ هل صليت اليوم؟!

ـ يا أمي أنا مقصّر، أنا لا أصلي، ولكن أنا لا أؤذي أحداً ولا أسيء إلى أحد، أنا لا أكذب ولا أسرق ولا أزني ولا أغش ولا أكذب، بل أنا أساعد الناس، ولا أتأخر عن عملي.

ـ هذا جيد يا ولدي، أحسنت، بارك الله فيك، هذا حق العباد عليك، وهو نصف الدين، ولكنْ لله حقٌّ عليك، وهو الصلاة، وهو النصف الآخر من الدين، ولا يمكن أن تقيم نصف الدين وتترك نصفه.

ـ ولكن يا أمي، مدير المعمل يصلّي ويصوم ويحج كل سنة، وله صورة تملأ الجدار وهو في ثياب الإحرام البيضاء، وأمامه على طاولة المكتب مصحف كبير مذهب، مفتوح على مسند للقراءة من الخشب المزخرف والمطعم بالعاج، وفي سيارته وراء المقود مصحف، وهو يسرق ويكذب ويؤذي ويغشّ ويزوِّر، انظري إلى النارجيلة في الحديقة، هو مثلها، ولكن بالمقلوب، الماء من فوق والنار من تحت.

❖

أتمنى أن أحز عنقه بالسكين التي أمامه على المنضدة، ولكنها سكّين غير حادة، يفتح بها الرسائل وأطراف الجرائد، لا بأس، هي أشد إيلاماً له، هو دائماً يتخلى لي عن الصحيفة المحليّة، يقرأ فيها صفحة الإعلانات، شركات أسهم مقاولات مشروعات، ثم يتخلّى لي عنها، مرّةً رأيت الصورة على الجدار وقد تشققت عند العنق، فاجأني بالسؤال:"لماذا تحدّق بالصورة؟، العام القادم سوف أؤدي فريضة الحج، ستؤدّيها معي، على نفقتي، هيّئ من الآن جواز سفرك"، هل يمكن أن أحجّ معه؟ ساعدني يارب، هل أزوِّر الدفاتر كي أعيش؟ لا يمكن أن أصارح أمي، ولا يمكن أن أسألَها، أعرف رأيَها سلفاً، لو بعث اللّه امرأة نبياً أو رسولاً لبعثها هي، ولكن اللّه لم يبعث امرأة نبياً أو رسولاً، ولكنه خلق نساء صالحات تقيّات، امرأة فرعون، زوجة زكريا، امرأة عمران، السيدة مريم، السيدة خديجة، السيدة عائشة، السيدة فاطمة، سامحني يارب، ساعدني يارب؟

❖

ـ يا بني المدير له رب يحاسبه، وهو لن يسامحه على إساءته للعباد، عند اللّه يا ولدي لا يضيع شيء، والمدير لا يمثّل الدين، والدين الحق لا يتمثل فيه، ولا في شيخ ولا قديس ولا نبي، الدين يؤخذ يا ولدي من كتاب اللّه ومن سنة رسوله، على كل حال هو له رب يحاسبه، وليس عليك حسابه.

ـ وهذا الرب نفسه سوف يحاسبني؟

ـ طبعاً يا ولدي، الرب واحد، والدين واحد، هو رب الناس كلهم، نحن كلنا على دين إبراهيم الخليل، مسلمين ومسيحيين ويهود، هو سمّانا المسلمين من قبل، وهناك أنبياء وأديان كثيرة لا نعرفها، الرب واحد، والدين واحد.

❖

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة — فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف — وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجّهت — ركائبه فالحب دينى وإيمانى

عندما كنت في السادسة، أو السابعة، نظرت إلى السماء، صعدت إلى سطح هذه العمارة، نظرت إلى السماء، رأيت السحب وهي تمشي، شعرت بالقبة السماوية الهائلة، أحسست بالكون الكبير، انتابني شعور بأنني نبيّ، وأن ملكاً من السماء سيهبط علي، وفي مرة أخرى تصورتُ طوفاناً سيغرق الأرض كلها، ويموت الناس جميعاً، ولا تبقى سوى امرأة واحدة، أتزوجها، فننجب ذرية جديدة تملأ الأرض، جدتي من غير شك هي التي حكت لي عن الأنبياء والرسل، وعن طوفان نوح، فتخيّلت أني نبيّ، وأنّ طوفاناً جديداً سيقع، لعلي تخيلت هذا من غير أن تحكي لي جدتي أي شيء، في كثير من الحالات أعرف أشياء أحس أني أعرفها من قبل، أو تقع حوادث، أظنها وقعت من قبل، أو أرى أشخاصاً أتوهّم أني رأيتهم من قبل، وهاهو ذا هشام أراه اليوم وهو يكرر هشام الأمس، في بعض الحالات أظن أني عبقري، وسوف آتي بأشياء جديدة، ولكن ها قد بلغت الخامسة والستين ولم أفعل شيئاً.

❖

ـ لا بد أن أسألك يا أمي، هل سيسامحه هذا الرب، وهو ربي وربه؟

ـ يا ولدي، يغفر الله كل شيء، إلا حق العباد.

ـ إذن، هذا الرب لن يسامحه على إساءته للعباد، ولكنه سيسامحني على تقصيري نحوه، مادمت لم أُوذِ عباده، وهو غنيٌّ عن صلاتي وصيامي.

ـ الله يهديك يا ولدي، هذا لا يصح، لا بد من صحة العبادة لله، وحسن التعامل مع الناس، ستصلي، لا بد في يوم من الأيام، أنا أدعو الله لك دائماً.

يتكلم بشيء من البوح:

ـ أنا على كل حال أصلي يوم الجمعة، الفضل لهذا الجار الطيب، صدقيني يا أمي منذ أن سكنت في هذه الشقة ما رأيت أي خير، كل يوم أستيقظ وأنا في كرب وغم وقهر، لا أعرف، لا شك، مدير المعمل أجرني إياها بأجرة زهيدة، ولكن لا أعرف، أنا غير مرتاح فيها.

يصمت، يبتلع ريقه، ثم يضيف شبه هامس:

ـ بصراحة هو لم يؤجرني هذه الشقة إلا بعدما زارني في شقتي السابقة، هكذا طلب زيارتي فجأة، أنا ما شكوت له من ضيقها، ولا من ارتفاع أجرتها، جهزنا له عشاء وفق استطاعتنا، تناول بضع لقيمات، أثنى على ذوق سناء، عرض توظيفها في المعمل، تترجم المراسلات مع الخارج، وتردّ على الهاتف والبريد الرقمي، ولكن أنا اعتذرتُ، قلتُ له سنفكّر في توظيفها بعد التخرج، وبعدها أجّرني الشقة، بصراحة، شيء يتحرك في داخلي، أنا قلق، كان ينظر إلى سناء نظرات غير مريحة، أنا أعرفه، خدع بعض العاملات، إذا فكر في شيء، فلا بد أن يفعله، صدقيني يا أمي، هذه أول

مرة أحكي فيها هذا الكلام، لا يمكن أن أنطق به أمام أحد، جاري الكريم هو في مقام الوالد.

الأم تقاطعه، تعلّق:

ـ هذه وساوس شيطان، استعذْ بالله يا ولدي، أنت الآن تكلمتَ، وبحتَ بما في نفسك، وانتهى الموضوع، لا تفكرْ فيه بعد الآن، هذا مرض يقود إلى الجنون، الأفكار التي تدور في داخلنا هي التي تصنع حياتنا، لذلك يا ولدي احرص على حسن التفكير، لا تدمّر حياتك.

يعلق، وهو يتقلقل في جلسته، ويتحرك، جسمه الناحل يتحرك داخل جلابيته البيضاء، كأنه ملفوف بكفن:

ـ صدقت يا أمي، أنا والله واثق من زوجتي، ومطمئن، وهي أفضل مني، وأنا والله لولا هذا الجار الطيب كنت انتحرت، أو جننت، هو في مقام الوالد، هو ينسيني كل شيء، كل يوم أو كل يومين أنزل إلى شقته، أسهر عنده في الحديقة، أدخن النارجيلة، هو لا يدخن، حتى في يوم الجمعة أنزل من الصباح، نتسامر، حتى يحين موعد الصلاة، فأذهب معه إلى الجامع للصلاة والاستماع إلى الخطبة، ولكن بصراحة، أتمنى أن يذهب هو للصلاة، ويتركني هنا وحدي مع النارجيلة.

❖

وأنا لا أصلي غير يوم الجمعة، وأحياناً لا أصليها، هي عندي عادة، وكثيراً ما أقرّر ألا أصلّيها، ثم أعود فأصلّيها، وفي الواقع لم ألتزم بصلاة يوم الجمعة إلا بعد أن سكن هذا الجار الشاب، وأخذ يزورني كل يوم جمعة، صرت أخجل، خشيت أن يظن أني لا أصلي، فأخذت أدعوه إلى الصلاة، ونذهب معاً إلى الجامع، في الحقيقة لا يعجبني خطيب الجامع المجاور، بل لا يعجبني كل الخطباء، لا يقولون شيئاً، لا بد من افتتاحية تستغرق خمس دقائق ولا بد من اختتام يأخذ عشر دقائق، وبين المقدمة والخاتمة خطبة قصيرة جداً عن الحج أو الأضحية، أو عن رمضان، أو عن نصف شعبان، خطب مكرورة، خطبة قصيرة في هذا الجامع يفرح بها التجّار وأصحاب المحلات، ويسعون بعدها إلى محلاتهم، أو يسرعون إلى ولائم الغداء، ثم النزهات في سياراتهم الفارهة، أو خطبة طويلة في جامع آخر عن حكايات من التاريخ والحلم باستعادته أو عودته، يفرح بها الأتقياء الورعون، وترى عيونهم تفيض من الدمع، ثم يسرعون أيضاً إلى ولائم الغداء، ولا بد في الأحوال كلها من الدعاء لوليِّ الأمر أن يحفظه الله ويمدّ في عمره لينصر الدين.

❖

تقاطعه أمُّه، وهي تشير إلى النافذة المفتوحة حيث النارجيلة:

- ومتى ستترك هذه النارجيلة ياولدي؟
- اليوم، هذا اليوم سأتركها ، إن شاء الله سأتركها هذا اليوم.

❖

لا تتركها ، اسمع نصيحتي لا تتركها ، أنا أستمتع برائحة المعسّل وهو يعبق في الأجواء، احرقها واحرق العالم معها ، العالم كلّه ملوث، ودخان نارجيلتك لن يزيده تلوثاً ، سياراتهم السوداء هي التي تلوث العالم، تلوثه أكثر من نراجيل كل المقاهي.

❖

- أنا لا أعرف لماذا أغلق مدير المعمل في الشقة غرفتين وترك لي فقط ثلاث غرف، قال: فيهما بضاعة، أي بضاعة هذه؟ أنا أحس بالاختناق، أحس بوجوده معنا في الشقة.

أعلق:

- هو يخشى أن تتمسك بالدار ولا تخرج منها.

- وكيف يمكنني التمسك بها؟، أنا روحي في يده، أجّرني الدار، ولا عقد بيننا ، هو نفسه يدفع ثمن الماء والكهرباء، حتى لا يقع في يدي أي وثيقة تدل على سكني الدار، وهو يستطيع في أي لحظة أن يرميني خارج الشقة.

وتعلق الأم:

- اصبريا ولدي، هي خير من الشقة التي كنت تستأجرها ، على كل حال، هذه عشرة آلاف ليرة، ليست مني، هي من أختك.

- لا ، لن آخذها ، كان الله في عونها ، أنا يجب أن أساعدها.

- لا ، هي تعيش وحدها ، ووضعها المادي أفضل منك، عندها راتبها التقاعدي، وابنها متزوج، وهو لا يبخل عليها ، ولا بنتها تبخل، بنتها تزوجت العام الماضي، عشرة الآلاف منها ، هيا ، خذها.

- شكراً ، لن آخذها.

- هي هدية ، ليست زكاة ولا صدقة ، هي هدية من أختك، والرسول كان يقبل الهدية ، هيا خذها ، ولا تتردّد ، ولا تخجل من جارك، هو بمنزلة الوالد ، وتفضّل بسرعة ، زوجتك تنتظر، تأخرت عنها ، سوف تظن أنك لا تريد العودة إلى البيت، هذا غير لائق بك، هيا بسرعة.

يأخذ المبلغ، يضعه في جيبه ، محنيَّ الرأس، مثل طفل.

❖

تنهض الأم، ننهض نحن، تمضي نحو النافذة العريضة ، تطل على الحديقة ، تتلقى النسمات العطرة ، تعلّق:

ـ الحياة جميلة، وتستحق أن نعيشها، لأنها نفحة من روح الله، هذه النسمات الربيعية الهادئة هي الحياة، استمتعوا بها وعيشوا حياتكم، لا تعكّروها، متّعوا أرواحكم، ولا تحرموها متعة التأمل والصفاء، كل ما خلقه الله جميل، لماذا؟ حتى نقدِّر الجمال، ونعيش الجمال، ونكون جميلين، ونشكر الله، ونصنع الجمال مثله في الكون كله، وللناس جميعاً، ولكن نحن لا نقدر هذا الجمال، ولانفهمه، ونفعل كل ما هو غير جميل.

❖

أنت صاحبة الحكمة، أيتها العجوز، أيتها الجدة المقدسة، نعرف هذا الكلام، ونتداوله، صباح مساء، ولكن لا نعمل به، ولا نطبّقه، ننسى الجمال وننسى الله، هذه الفلسفة بين أيدينا، هي مبذولة، لا نقدِّرها، ننساها، هي مثل ثوب بَلِيَ، أو مثل ثوب انتهى زيه، للأسف، هو الثوب الذي أهملناه نحن، أو أبليناه، أمس كنت أقرأ اسبينوزا، ومن قبل قرأت ديكارت ونيتشه، وفي الشباب قرأت ماركس ولينين، قرأت فرويد وسارتر، مرة أتقمص هذا وأخرى أقلّد ذاك، حتى إنني في الشباب وضعت قبعة مثل جيفارا، وعلقت صورة لينين في صدر غرفتي، واشتريت سيكاراً فخماً وقلدت كاسترو، وأنا في أوائل المرحلة الثانوية، مع المراهقة، كنت أظن أبي رأسمالياً، كرهته، تمنيت موته، قلت هو ربّ عمل، يمتصّ دم العمال، قلت إنه استأجر هشام ليكون مدير المعمل، من غير أن يملِّكه شيئاً، كي ينصرف هو إلى حديقة هذه الشقة، كنت أتصور هذه الحديقة والعمارة يوم كانت ملك أبي إقطاعية صغيرة، وأتصور أبي إقطاعياً، وكنت أتصوره وهو يملك المعمل رأسمالياً كبيراً، ثلاث وعشرون آلة نسيج صغيرة قديمة تعود إلى عام ١٩٥٠ حسبتها من حق العمال، هم المالكون الحقيقيون لها، من حقهم أن يستولوا عليها، هكذا قرأت في الكتب، طبَّقتُ ما قرأتُ على أبي، رأيت أبي أكبر رأسمالي، وأكبر إقطاعي، كيف يملك عمارة من ثلاثة أدوار بالإضافة إلى الدور الأرضي، هم روّجوا للكتب التي تقول هذا، الكتاب فاخر ومجلد وجذاب بعشر ليرات، بثمن كتاب واحد مما هو معروض في السوق يمكن شراء عشرة كتب فكرية من ذلك النوع، حمراء ومجلدة بجلد فاخر، كنا نباهي باقتنائها ونملأ بها الرفوف، ونقرأ فيها، ولكن لا نقرؤها كلها، نحفظ بعض المصطلحات والجمل والشعارات، ولكن حين تُوُفِّيَ والدي، أدركتُ أنه فقير فقير جداً، أو متوسط الحال، فلنقل إنه غنيّ، برجوازي، ولكنه ليس بالرأسمالي ولا الإقطاعي، ليس عنده سوى ثلاث وعشرين آلة نسيج في معمل صغير، قديمة، تحتاج إلى تنسيق، وعجبت من ذلك المدير كيف يستولي على المعمل؟؟ كيف يزور الوثائق؟

❖

هذا ما يؤلمني يا أمي، أحببتها، وأحبها، وما أزال أحبها، وهي تحبّني، ولكن ما أزال أحس أن عقلها ليس معي، روحها ليست لي، أنا أختلف عنها وهي تختلف عني، أنا ألتهمها، أفترسها، أنالها كلها، ولكن في النهاية أحس أني لم أمتلك لا عقلها ولا روحها ولا تفكيرها، أحس أنها ليست لي كلها، لاحظي يا أمي الفرق، النارجيلة أملكها كلها، الماء والنار، المعسل أحرقه كله، لا أنهض من أمامها حتى أحرقها كلها، هي لي وحدي، هي ملكي أنا، الخرطوم بيدي لي وأنا أحرق المعسّل، وأنا أسحب الدخان، أملأ به الرئتين، وأنا أنفثه، هكذا أفعل مع زوجتي، ولكن مع ذلك أحس أنها ما تزال هي بعيدة عني، لا أستطيع أن أحرقها، لا أستطيع أن أملأ بها الرئتين، لا أستطيع أن أنفثها هكذا في الهواء، مثل دخان هذه النارجيلة، أنا مع النارجيلة كل شيء، هي ملكي، كلها ملكي، هذا ما يفجعني، أريد أن أمتلكها كلها، أريد أن أخنقها، أن أذبحها، أن ألتهمها، كلها، أنا لا أرتوي ولا أشبع، لمن أشكو؟ لمن أبوح؟ لا أعرف؟! وهذا الشيخ العجوز جاري مثل أبي، أحترمه، أخجل منه.

❖

الأم، الجدة العجوز تلتفت نحونا فجأة وتسأل:

ـ ما أجمل هذه الحمامات البيض، ولكن يا ولدي لماذا تحبسها في القفص؟ اتركها لتحلق في الفضاء، تطير، تحرك أجنحتها، خلقت لتطير، أنا أشفق عليها، تأكل وتتناسل وهي حبيسة.

ـ هي مثلنا يا أمي كلنا محبوسون مثلها.

تتنبّه إلى فردة الحذاء، فتضع يدَها على صدرها، تصيح مدهوشة:

ـ ولكن أي جار هذا صاحب الذوق الرفيع، رمى فردة حذاء سوداء عتيقة، إلى جوار هذه البنفسجات الناعمة، شيء مخجل حقيقة، كان الله في عونك يا ولدي على مثل هؤلاء الجيران، ليتني أعرف هذا الجار الذي رمى هذه الفردة من الحذاء.

يرد هشام وهو مطرق الرأس:

ـ هذا أنا يا أمي.

تخفي وجهها بكلتا يديها، كأنها لا تريد أن ترى. أتدخّل قائلاً:

ـ أنا سامحته.

ـ لا يا ابني، قل ماذا فعل جارك حتى ترمي فردة حذائك إلى حديقته؟ ماذا فعلت زوجتك؟ ماذا جرى في الدنيا حتى ترمي فردة حذاء عتيقة إلى حديقة جميلة؟ قل لي؟

❖

أمي، أنا كرهت حياتي، أنا، أنا، أنا رميتها، كرهت الحديقة والورود كرهت زوجتي، كرهت نفسي، زوجتي وردة بنفسج، وأنا كرهتها، شقتي تطلّ على

الجنة، وأنا كرهت الشقة والجنة والدنيا كلها، حتى جاري كرهته، فردة الحذاء هذه هي أنا، المدير، يا أمي، جعلني أكره كل شيء.

❖

ترن في أذني أغنية صالح عبد الحي:

ليـــه يـــا بنفســـج بتـــبهج وانـــتَ زهـــر حـــزين
والعـــين تتابعـــك وطبعَـــكْ محتشـــم ورزيـــن
ليـــه يـــا بنفســـج بتـــبهج وإنـــتَ زهـــر حـــزين

حُســـنك في كونـــك، بلونـــك، تـــبهج المقهـــور
اللـــي يضـــيره، ضـــميره، بـــالظلام مغمـــور
ليـــه يـــا بنفســـج بتـــبهج وانـــتً زهـــر حـــزين

حطّـــوك خَميلـــه.. جميلـــه.. فـــوق صـــدور الغيـــد
تســـمع وتســـرق، يـــا أزرق، همســـة التنهيـــد
ليـــه يـــا بنفســـج بتـــبهج وانـــتَ زهـــر حـــزين

❖

- الاختلاف يا ولدي سر الحياة، كل شيء في الحياة قائم على الاختلاف، ولكن علينا أن نعرف كيف نختلف، انظر إلى أصابع يدك الخمس، كم هي مختلفة في الطول والقصر والقوة والضعف، هذا الاختلاف يساعدها على التقاط الأشياء الدقيقة الناعمة اللطيفة، وهذا الاختلاف نفسه يساعدها لتكون قبضة قوية تمسك بالأشياء الصلبة، بها تضرب، وبها تلمس.

❖

صدقتِ أيتها الجدة، أنتِ ربة الحكمة، أنت روح جدتي، أنت جدتي بعثت من قبرها، جدتي لم تمت، جدتي لن تموت.

❖

صدقت يا أمي، أنا والله أحبها، أحبها، أحبها، وأنا مختلف معها، ولكن لا أعرف كيف أتصرف، أود لو أقبّلها وأنا أخاصمها، أنا مجنون.

❖

صدقتِ أيتها الجدة، الخطوط في الإبهام مختلفة في البشر منذ آدم إلى قيام الساعة، حدقات عيونهم، نبرة أصواتهم، كلها مختلفة، وهم مختلفون في الطبائع

والأمزجة والأفكار، وفي اختلافهم تكاملهم، قال تعالى:"وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ".

❖

ـ كلمني يا بني، لا تصمت، انطق ولو بكلمة، حدثني عن سبب واحد يبرر كل هذا الغضب، أنا حتى الآن ما سألتك، قل لي بصراحة، لماذا خاصمت زوجتك؟ هل أساءت إليك؟ هل أخطأت في شي؟

ـ لا، لم يحصل من طرفها أي شيء.

ـ ولماذا خاصمتها؟

ـ أنا كرهت حياتي، أنا ..أنا، لا أعرف ماذا أقول لك؟

ـ تكلم يا بني، لا تخبئ ما بنفسك، يمكننا مساعدتك أنا أو جارك؟

أتدخل، فأتكلم:

ـ المدير أعطاه السجلات اليومية والشهرية ودفاتر الحسابات وطلب منه ترحيلها إلى دفاتر جديدة، وتزوير كل شيء، حتى يعلن بعد ذلك خسارة المعمل، ويسرح نصف العمال.

الأم تضحك بهدوء، تتكلّم بعفوية:

ـ الأمر بسيط، يا بني، صوِّر السجلات الأصلية، وبعدها صوِّر الملفّات المزوَّرة، ولو كانت بخط يدك، وبعد إعلانه الخسارة وتسريحه العمال، اتصل بالعمال المسرَّحين ووكلوا محامين أو ثلاثة، وارفعوا عليه دعوى.

أدهش لهذه الفكرة، أعلّق:

ـ هذا هو عين الصواب.

ـ ولكن يا أمي هي عشرة سجلات يومية، لا يمكن حملها، ومكتب التصوير يمكن أن يخبر المدير، أصدقاؤه، أعوانُه، في كل مكان، هو سلطة يا أمي، سلطة بكل معنى الكلمة، أنت لا يمكن أن تعرفي، حتى جاري الكريم، لا يمكن أن يقدّر مدى نفوذه.

❖

من المؤلم، ياهشام، أنك أنت نفسك أحد أعوانه، وشكل من أشكال سيطرته ونفوذه، وإن كنت في الوقت نفسه أحد ضحاياه، وأنا كذلك، كلنا من حيث لا ندري شكل من أشكال سيطرته ومناطق نفوذه، ونحن في الوقت نفسه ضحاياه، نحن مسامير في عجلته، أنت نكأت كل الجراح، الآن وعيت ذاتي، كنت أظن أني أعي ذاتي، ولكن الآن وعيتها أكثر، فيك أرى ذاتي، أنت لا تكرره، أنت تكررني.

❖

أتكلم:

- أنا أعرف صاحب مكتبة مؤتمن، عنده أجهزة تصوير، يمكن تصويرها في الليل، بعد إغلاق المحل، سنحمل كل الدفاتر والسجلات بسيارتي، وأنا أتبرع لك بأجرة التصوير لكل السجلات، نصور منها نسختين، ثلاث نسخ.

تعلق الأم:

- هل رأيت؟ كل مشكلة لها حل، أنت اعمل، وأنا سأصلّي وأدعو الله لك، لا بد من الصلاة والعمل، اسمع، سأحكي لك حكاية حتى تتسلى: كان في إحدى القرى جدٌّ عجوز يعيش مع زوجته العجوز مثلي، وليس لهما أحد سوى الله، وليس عندهما غير ثلاث عنزات، أو أربع، وأربع دجاجات أو خمس، وذات يوم في ليلة من ليالي الشتاء سطا عليهم ذئب، فنهش عنزة، وفي اليوم التالي نهش عنزة، في الليلة الثالثة استخرج الجد من صندوق قديم بارودة عتيقة، مسحها، نظفها، حشاها، ولما حلَّ الظلام قعد وراء الباب ينتظر قدوم الذئب، وتوضأت العجوز وصلت لله تعالى ركعتين، وقعدت على سجادة الصلاة تدعو الله أن يقصف عمر الذئب، وهكذا طوال الليل، الجدّ يهيئ البندقية، والعجوز تصلي وتدعو، حتى ملأ الضوء الدنيا، وأشرقت الشمس، وفتح العجوز الباب، فوجد الذئب وقد سقط وراء الباب وهو ميت.

وتسعل سعالاً خفيفاً تضحك، وتضيف:

- هل رأيت يا ولدي، لا بد من الصلاة والعمل، والآن، هيا، نطلع إلى فوق لنتناول طعام الإفطار.

وتلتفت إليّ قائلة:

- وتفضل معنا أنت وزوجتك، وهات معك دلة القهوة المُرّة، هذه ضرورية بعد المأمونية والشعيبيات.

- أنا ليس عندي زوجة، ياخالة.

- ولماذا؟ هل خاصمتها وطردتها إلى بيت أهلها على عادة كل الرجال في بلدنا؟

ويتدخل جاري هشام:

- لا يا أمي، جاري أعزب.

❖

أنا أعزب، نعم، الآن، ولكن أنا تزوجت، وليتني لم أتزوج، تزوجت، وفقدت الزوجة، والأم والجدة والمعمل، ضاع كل شيء، حبات في عقد واحد، فرطت كلها وضاعت.

❖

تدهش، تضع يدها على خدها، تحدّق بي، تصمت، ثم تعلّق:

ـ ولماذا يا ولدي أنت أعزب؟ هذا في شرع الله لا يجوز.

وأعلق:

ـ ظروف.

وتلتفت إلى ابنها كأنها تؤنّبه:

ـ كيف تترك جارك أعزب؟ أنت المسؤول؟

وتلتفت إلي لتقول:

ـ أنا عندي عروس لك مناسبة.

أدهش، يدهش جاري، يعم الصمت، تلتفت إلى ابنها وتقول له:

ـ قل له، عندك أخت أرملة، زوجها مُتَوَفًّى.

❖

وأنا أرمل، أيتها الأم الجدة، ولكن لا أحب هذه التسمية، أنا أعزب، هكذا وصفني ابنك، وهو لا يعرف، أنا أعزب.

❖

وتلتفت إليّ لتقول:

ـ هيا، تفضل معنا، تناول فطورك، ثم نتحدث في الموضوع، ستكون زوجتك بإذن الله، لا تقلق، عندها بنت واحدة متزوجة، وولد واحد، ابنها رجل، ومتزوج، ولا يحمّلك أي مسؤولية، وهي كانت موظفة، وعندها راتب تقاعدي، الآن كنا نتحدث عنها، وهي طيبة مثل أخيها، وحنون، لا يجوز أن تعيش وحدك في مثل هذه الشقة الواسعة والحديقة التي هي مثل الجنة.

ويعلق ابنها، وهو يضحك:

ـ لا تحسديه على هذه الشقة.

وترد سائلة:

ـ ليست الشقة ملكه؟

ويرد عليها ابنها:

ـ هي ملكه، ولكنه لا يهنأ فيها.

ـ طبعاً لأنك ساكن فوقه، وكل يوم أنت في خصام مع زوجتك.

ـ لا يا أمي، لأن له حكاية طويلة، مثل حكايات ألف ليلة وليلة، مثل حكايتي مع مدير المعمل، هي حكايته نفسها مع المدير، بل أصعب، يكفي أن تعرفي أن والده هو صاحب المعمل ومالكه الحقيقي، والسيد المدير استولى عليه، وحرمه كل شيء.

وتلتفت إليّ لتقول:

ـ غير معقول.

- هذه هي الحقيقة.

- ارفع عليه دعوى.

- رفعت عليه من أربعين سنة عشرين دعوى، ووكلت عشرة محامين وما حصّلْتُ أي شيء.

- عندك وثائق؟

- عندي وثائقي، وعنده وثائقه.

- لا تيأس، ارفع عليه دعاوى جديدة، الزمان تغير، وكل شيء يتغير، لا أحد يعيش إلى الأبد، لا شيء يستمر إلى الأبد، والدك مات، جدك مات، وأنا سأموت، الأنبياء من قبل ماتوا، ملوك نزلت عن عروشها، رؤساء طارت عن كراسيها، لا تيأس، كل شيء يتغير، التغير هو قانون الحياة، قد تصدر عن الدولة قوانين جديدة، تغيّر كل شيء، لا تحزن يابني، لكل ظالم نهاية، ولا بد بعد الضيق من فَرَج، إذا كنت غير مرتاح في هذه الشقة فاتركها، أجِّرْها، ابنتي عندها شقة صغيرة متواضعة، يمكن أن تعيش فيها معها حياة جديدة، بالمناسبة ابنتي اسمها حياة، ستعيش معها الحياة، غيِّر حياتك، ابنتي طيبة مثل أخيها، وحنون، وأنت شاهدت بعينك كيف أرسلت له معي عشرة آلاف، ولم تُرِدْ أن تعطيه المبلغ بنفسها، حتى لا يشعر بالحرج، وأنا بعد تناول الإفطار سأذهب لزيارتها، سأحكي لها عنك، زوجها توفي، وهي ما فكرت بالزواج، أنا الآن فكرت بالنيابة عنها، وأرجو ألا يفاجئك حديثي، هو من غير المناسب في مجتمعنا أن تتكلم الأم مثلي على موضوع زواج ابنتها، ولكن أنت تقدِّر.

❖

هل ستتكرر القصة؟ هل يعيد التاريخ نفسه؟ أنا لا أصدق ما يقال عن تكرار التاريخ لنفسه، قد يتشابه، ولكنه لا يتكرر، يا إلهي؟ لا، أنا قررت ألا أتزوج، من قبل قررت، والآن أقرر.

❖

- شكراً يا خالة، أنا طول عمري ما فكرت في الزواج، وهذه الشقة قصر، مثلما قلت، وأنا فيها مرتاح، لا زوجة ولا أولاد، ولا وجع رأس، وعندي شقة في هذه العمارة، في الدور الثالث، ما تزال ملكي، وأنا أعيش من أجرتها، أنا إقطاعي أو رأسمالي، أنا أعيش بألف خير.

- لا يا ابني هذا لا يصح، وإذا لم تعجبك ابنتي عندي ابنة جارنا، هي أرملة طلقها زوجها لأنها عاقر لا تلد، وهي في الأربعين، المرأة يا ابني عندنا في بلدنا مظلومة، حتى الآن مظلومة، لو درست وتثقفت وتوظفت، ما يزال الرجل عندنا على عقل جده وجد جده، إذا ما حملت الزوجة طلقها أو تزوج غيرها، وإذا غضب منها تزوج الثانية والثالثة،

وإذا ما حملت بذكر طلقها أو تزوج، وإذا ما عجبتك بنت جارنا يمكن التفكير بغيرها.

ويعلق هشام:

ـ والله أنت يا أمي مثل الصيدلي، كل علة عندك لها دواء.

وترد عليه:

ـ إلا علتك أنت، ما لها عندي دواء.

تلتفت إليَّ لتقول:

ـ هيا، اطلع معنا، لتتناول الإفطار.

أقول لها:

ـ فقط اسمحي لي حتى أبدل ثيابي.

ـ أنا صاعدة قبلكم، لا تتأخروا، المائدة جاهزة، هيا، نحن في الانتظار.

وتمضي أمامنا، متجهة نحو الباب، وقبل أن تصل إليه، تقف، تلتفت، إلى ابنها وتقول له:

ـ يابني، النارجيلة التي في الحديقة ليست هي الحل، نارجيلتك الحقيقية هي زوجتك، لا تتأخر عنها، هي عاقلة وصابرة، ولكن يمكن في كل لحظة أن تنفجر، أنا أعرف، بصراحة، هذا النكد والقهر والخصام لا يمكن أن تتحمله المرأة أكثر، قد تحمل حقيبة ثيابها وتمشي في أي لحظة، يجب أن تحفظ كرامتها.

وتهم بالمضي، ثم تقف، تقترب من هشام، تلمس ذقنه، تحكّها بيدها، تسأله:

ـ ذقنك خشنة؟ لماذا لم تحلق ذقنك هذا الصباح؟ لا تقل لي هو يوم عطلة، لزوجتك عليك حق، احلق ذقنك، واستحم، واخلع هذه الجلابية البيضاء، لست في الحج تطوف حول الكعبة ولا أنت في المسجد، يمكن أن ترتديها قبل ذهابك إلى الصلاة، يجب أن تظهر أمام زوجتك بالمظهر الذي يجذبها إليك، انتبه إلى نفسك، أشياؤنا تدلّ علينا، هي نحن.

تلتفت إليّ لتلقي كلمتها ثم تمضي:

ـ وأنت يابني، أن تموت على صدر امرأة، خير من أن تموت وحدك.

❖

مِشْيَتُها، حَرَكَتُها، صوتُها، كل شيء فيها يشبه جدتي، رحمها الله، يا إلهي، كم يتشابه العجائز بعضهم مع بعضهم الآخر، كذلك الأطفال وحدهم يتشابهون، هم الأبرياء والحكماء، لا ينطقون إلا بالحق والصدق.

جدتي كانت تقول لي: "انهض يا ولدي باكراً، استحم، احلق ذقنك، البس ثيابك، تناول الفطور، واقعد إلى طاولة الدراسة، بذلك تزرع الثقة في نفسك، تفهم

أكثر"، ما كنت أصدّقها، كنت مثل سائر الشباب، ولا سيما في أيام الامتحان، لا أستحم، لا أحلق ذقني، لا أبدل ثيابي، لا أتناول طعام الإفطار، لا أنام.

النارجيلة تقرقر ولا جدوى، ونحن نحرق فيها أعمارنا، أنا المسؤول عن هذا الجار الشاب، لعل ترحيبي به واستضافتي له واستماعي إليه هو الذي شجعه على خصام زوجته والهرب منها إلى حديقتي، أنا ألوم نفسي، أخشى أن أكون المسؤول عن تصرفاته، هو يبوح لي، ويتكلم، ويسلي نفسه بالنارجيلة، ترى لمن تبوح زوجته المسكينة، وكيف تسلّي نفسها، كيف؟ لا أعرف؟ لعلها مشغولة بطفلتها "هناء"، الحمامة البيضاء، الجميلة، وبالدراسة، أنا لم أسمع طوال سنة ونصف صوتها، بل لم أسمع أي حركة منها فوق شقتي، كأنها تمشي حافية، كأنها لاتكنس الأرض، ولا تحرك قطعة أثاث، يا إلهي كم المرأة مظلومة؟؟.

كم تمنيت أن أموت على صدرها، ولكنها ماتت قبلي، ماتت وحدها، ماتت في الوقت الذي كنت فيه بحاجة إليها، والآن، في آخر عمري، أنا الآن إليها أحوج، ولكن لا يمكن أن أكرر التجربة؟.

❖

صدقت يا أمي، نارجيلتي الحقيقية فوق، لا هذه، ولكن سأحطم هذه النارجيلة وتلك النارجيلة، ما عادت تنفع، لا هذه ولا تلك، أنا ما عدت أعرف كيف أعيش لا مع النارجيلة ولا المرأة ولا الجار، ولا مع نفسي، ليت الدنيا كلها تخرب، ليت قنبلة ذرية مثل قنبلة هيروشيما تدمر العالم كله. لا جدوى.

٤. الزوجة....والحقيبة

أبقى أنا وهشام، يلتفت إليّ ليقول:

ـ أمي مثل شهرزاد، هي لا تحكي حكاية، هي تصنع حكاية، وحكايتها حلوة الختام، أنا تعيدني إلى زوجتي، وأنت تزوِّجك من أختي، على كل حال، كل شيء نصيب، ومرهون بظرفه، والآن، هيا، تفضَّلْ معي، وإن كنت أنا بصراحة لا أحب المأمونية، وأتمنى البقاء هنا عندك.

ـ يمكن أن تبقى في ضيافتي إذا شئت، أهلاً وسهلاً، ولكن هذا غير مناسب، من أجل أمك، غضبك من زوجتك لا يبرر عدم صعودك، ولذلك يجب أن تصعد، من أجل أمك، وأنا اعذرني، تفضَّلْ أنت، تناول الإفطار مع زوجتك وأمك وابنتك، سألحق بكم بعد ساعة، فأشرب فنجان قهوة.

ـ هل تعاني من مرض السكري ولا يمكنك تناول الحلويات؟

ـ لا، والحمد لله، أنا لا أعاني من أي شيء.

ـ من أجل أمي، أنت وعدتها!
ـ أرجوك، اعذرني.
ـ هل تشكو من شيء، اعذرني، إذا كنت غير قادر على الزواج فسوف أطلب من أمي ألا تتحدث عن موضوع الزواج.

❖

لماذا يصر على موضوع مقدرتي الجنسية؟ هل يهمه الموضوع؟ لا أعرف، كم هو نقي وطيب، بل ساذج.

❖

ـ لا، لا، أنا كما قلت لك مثل الثور، وأنا من مواليد برج الثور، في العاشر من شهر أيار، هذا الشهر الذي يخجل الناس من اسمه، فيسمونه مايو، أو ماي، بالإمالة، الحقيقة صاحبك المدير السيد هشام يا من تحمل اسمه دمّر كل شيء، أنا زهدت في الحياة، نسيت التفكير في الزوجة وفي البيت وفي العالم.

❖

مرة أخرى، أكاد أبوح، هل أحدثه عن نجوة؟ هل أحكي له عن نوال وابنتها ليلى، أو عن روضة؟ أو عن دلال، ظلال عبرت حياتي، بل عبرت خيالي. لا ضرورة، الموضوع كله انتهى، أريد أن يبقى ذكرى، هو شاب، ومن جيل جديد، وقد لا يقدّر، أريد أن أبقى في عينيه العجوز الأعزب، لا العجوز الأرمل، هذه الصفة لا أحبها.

❖

لا يا صديقي، أيها الشيخ العجوز، لا يبدو لي أنك من برج الثور، أنت من غير شك من برج العذراء، أو برج الحمل، أو الجدي، مدير المعمل أكلك من دون ملح، وأكل والدك، وسيأكلني، إن لم يكن قد أكلني فعلاً، هو من برج الثور والأسد والتنين والحوت والعقرب والأفعى والخرتيت، نحن ياصديقي كلنا من برج الحمَل.

❖

ـ سنصعد، لا من أجل الطعام ولا من أجل الزواج، ولكن من أجل العجوز.
ـ لماذا لا تبحث عن عمل لزوجتك كي تساعدك؟ يمكن أن تعمل في التدريس، يمكن أن تعمل في مكتب للترجمة؟ أو سكرتيرة في أي مؤسسة حكومية.

يرسل زفرة طويلة، ثم يقول:

ـ أنا مع عمل المرأة، لست ضده، أنا مع حريتها، أنا بنفسي شجعتها على الدراسة، تقدمت بطلب توظيف، في وظيفة مؤقتة، قد تصرف بعد سنة، من غير أي تعويض، ولا بد مع ذلك من ثمن، رواتب الأشهر الثلاثة الأولى كلها رشوة، راتب شهر للسمسار، وراتب شهرين للمدير، نحن ندعو إلى تحرير المرأة، في الظاهر، ولكن

نريد استغلالها في الحقيقة، نخفض الرواتب والأجور، ونضطر المرأة بعد ذلك إلى العمل، بدعوى الحرية، وبدعوى المرأة نصف المجتمع، على الزوج أن يعمل، وعلى الزوجة أن تعمل، وعلى الأولاد أن يعملوا، ويبقى مستوى معيشتهم دون المستوى اللائق، في هذا البلد لا يعيش غير المسؤول والتاجر والسمسار، لا حياة للموظف ولا المثقف ولا الفلاح ولا العامل، انظر إلى الأولاد في الشوارع وعلى الأرصفة، هذا يبيع علكة، وذاك يبيع سكائر، وثالث يبيع أوراق اليانصيب، بدلاً من أن يكونوا في المدارس، وأولاد التجار والمسؤولين يتسابقون بسيارتهم الفارهة في الشوارع، وليست هنا المشكلة، المشكلة في الفقراء والعمال والفلاحين والموظفين أنفسهم، يعيشون في البؤس والقهر والقمع، مستسلمين خانعين صامتين، يسلون نفسهم مثلي بالنراجيل، والأسوأ هو تمجيدهم لظالمهم وتعظيمهم له بل عبادته.

أقاطعه قائلاً:

- هيا لنصعد، من أجل أمك، تأخرنا كثيراً عنها، قبل أن تنزل إلينا مرة ثانية، وأخشى أن تغضب هي الأخرى منك.

- الأم لا تغضب، ولو غضبت فهي تسامح، هي مثل الرب، وصدقني أتمنى أن تبقى هي هناك فوق مع زوجتي، وأبقى هنا تحت معك.

- ولكن يجب أن نسرع.

يضيف:

- أكثر ما يقهرني في المعمل مشهد العمال أمامي يمدحون المدير، يسرعون إلى مسح سيارته وتلميعها، وهي لا تحتاج إلى تلميع، وأمس كانت إحدى العاملات تحمل له باقة صغيرة من الورد وتستأذن في الدخول عليه، ومدير مكتبه يتركها تنتظر ساعة، ثم يقول لها: اذهبي إلى عملك، وهات هذه الباقة، أنا سوف أُدخلها إليه.

❖

بدأت أكره نفسي، أعود إلى الشعور بأني إقطاعي أو رأسمالي كبير.

❖

ويقرع جرس الباب، أفتحه، أبو محمود، حارس العمارة، يحمل أسطوانة الغاز.

- أهلاً أبو محمود، بارك الله فيك، ضعها في مكانها في المطبخ.

أبو محمود في الستين، ضئيل، معروق، ناحل، لا يبلغ وزنه السبعين، ابن قرية قريبة، يعمل حارساً لثلاث عمارات، هو في الحقيقة ليس بحارس، هو خادم، وأخجل من هذه الكلمة، يأتي كل يوم صباحاً من قريته، يجلب لنا معه البيض واللبن والخضروات الطازجة من قريته، ويشتري للسكان في العمارات المجاورة ما يحتاجون

إليه، ويساعد أبو صلاح صاحب المحل المقابل للعمارة، ثم يعود إلى قريته بعد العصر، طيب، بسيط، الكل يحبه، وهو صادق وأمين.

ـ اليوم هو الجمعة، هو يوم عطلتك، والمفروض أن تكون في القرية.

ـ جاركم أبو صلاح طلب مني مساعدته في ترتيب المحل.

ـ متى سترجع إلى القرية.

ـ سأصلي الجمعة، وأرجع إلى القرية.

ـ وأين ستؤدي صلاة الجمعة؟

ـ في جامع الشيخ أبو بكر، فهو أقرب، والخطبة فيه أقصر.

ـ بعد الصلاة مباشرة تمر بي، ومعك كيس من الخام كبير، انظر إلى الحمامات البيض في القفص، هل رأيتها؟ سأعطيك هذه الحمامات كلها، احملها إلى القرية، لتعيش هناك في الفضاء الحر.

ـ سيفرح بها أحفادي، سأفرح بها أنا أكثر.

ـ وابحث عمن يشتري القفص، وخذ ثمنه لك.

ويتكلم هشام مخاطباً أبو محمود:

ـ يا أبو محمود، خذ لي من محل أبو صلاح خمس زجاجات كولا، ورقائق بطاطا وبسكويت.

ـ نسيت أن أقول لك، أبو صلاح طلب مني أذكرك بأن ابنتك كل يوم تشتري رقائق بطاطا وكولا، وأن ديونك زادت عن الحد المعقول.

ويرد عليه هشام:

ـ قل له: مع أول الشهر سوف أسدّد كل ديوني.

❖

أبو محمود يهم بالمغادرة حاملاً الأسطوانة الفارغة، وهو يجر خطواته المتعبة. أناديه، أستوقفه:

ـ يا أبو محمود، ضع هذه الأسطوانة عن كتفك، تعال اقعد، اشرب قهوة مرة.

أبو محمود ينزل الجرة عن كتفه، يلقي بنفسه في المقعد، أصب له القهوة.

ـ أنت متعب يا أبو محمود، لماذا لا يساعدك أولادك؟

يرشف القهوة، يرسل زفرة طويلة:

ـ إيه، عندي أربعة أولاد، رجال، كل منهم بقوة هذا الحيط، ولكن لا يمكنهم فعل شيء، ليس عندي غير داري، وعشرة هكتارات، بنيت لكل واحد غرفة، وزوجته في الدار، ووزعت عليهم الهكتارات العشرة، ولكن ماذا تنفع عشرة هكتارات.

ـ المشكلة ليس في حجم الأرض، المشكلة في العناية بها ، وتزويدها بالسماد الجيد ، والبذار المحسن.

يرسل زفرة طويلة ، ثم يتكلم:

ـ لا فائدة، ولو عندي ألف هكتار، داري في الحارة الشرقية ، وأرضي في الناحية الشرقية ، الخير كل الخير في الحارة الغربية والحارة القبلية ، خير ربنا كثير، لا ينقطع، المطر ينزل في كل مكان، ولكن نحن البشر بعضنا يظلم بعضنا الآخر. هات صب لي من هذه القهوة.

أصب له، يكرع الفنجان كله، يرسل زفرة، ثم يتكلم:

ـ دار المختار في الحارة الغربية ، رئيس هيئة الفلاحين داره في الحارة الغربية ، مدير الناحية داره في الحارة القبلية ، حتى إمام الجامع بنى داره الجديدة لزوجته الجديدة في الحارة القبلية ، وترك داره في الحارة الشرقية مع زوجته القديمة أم أولاده ، متر الأرض عندهم كان بخمسمئة صار بخمسة آلاف ، المستوصف في حارتهم ، الصيدلية في حارتهم ، الابتدائية والإعدادية والثانوية كلها في الحارة الغربية والقبلية ، متر الأرض عندنا مايزال بخمسمئة ، هناك أوربة ، البذار المحسن يستولي عليه رئيس هيئة الفلاحين ، يعطينا ربع استحقاقنا والبقية لأهله وأصحابه ، وإذا تكلمت نزل الغضب كله عليك ، القروض كلها لهم ولأصحابهم ، لا يمكن شراء جرار ، لا يمكن شراء بذار ، الجرارات والسيارات كلها عندهم ، ونحن في الحارة الشرقية والشمالية مغضوب علينا ، ما بقي غير أتزوج بنت المختار ، أو أخت رئيس هيئة الفلاحين ، والله لو أعرف ، كنت فعلتها قبل عشر سنين ، ولكن اليوم فات الأوان ، الله يرضى عليك لا تسألني عن الأرض ولا عن الأولاد ، الحمد لله ، مادمت أنا قادر على حمل هذه الأسطوانة ، فأنا بألف خير، وسأظل أسعى وأشقى وأتعب ، حتى أساعد أنا أولادي ، لا أريد منهم أن يساعدوني.

يحمل الأسطوانة على كتفه ويمشي ، هشام يقول له:

ـ لاتنس الكولا والبسكويت ورقائق البطاطا.

عند الباب يلتفت ليقول:

ـ وهل يمكن نسيان طلبات العصفورة هناء.

❖

ترنّ في سمعي أغنية فريد الأطرش:

مـــا احلاهـــا عيشـــة الفـــلاح — مـــتطمن قلبـــه مرتـــاح
يتمـــرغ علـــى أرض بـــراح — والخيمـــة الزرقـــا ســـاتراه
دي الشـكوى عمـره مـا قالهـاش — إن لاقـــى والا مـــا لاقـــاش

والــدنيا بقرشــين مــا تســواش   طـول مـا هـو اللـي حبـه حـداه

❖

ـ يا أخي هشام، أنت تعرف من غير شك أضرار الكولا ، وخاصة بالنسبة إلى الأطفال، أنا شخصياً لا أشرب الكولا ، حتى رقائق البطاطا ضارة، لأنها مقلية بزيت رديء، ومضاف إليها المنكّهات الكيماوية.

ـ ابنتي هناء اعتادت عليها ، حتى أنا اعتدت عليها.

ـ أخشى أن أقول لك هي قاتلة.

ـ فليكن أنا أريد أن أقتل نفسي.

❖

ويقرع الباب، أفتحه، تدخل هناء مثل حمامة بيضاء مذبوحة، والدموع تنفجر من عينيها ، تتكلم وهي تشهق والكلمات تتقطع في صدرها :

ـ بابا أسرعْ، ماما تملأ حقيبتها بالثياب وهي تقول: لن تروني بعد اليوم.

يأتي بحركة عنيفة من يده وسريعة كأنه يحمل النارجيلة ويرمي بها أرضاً :

ـ أقسم بالله العظيم، لن أدخن النارجيلة بعد الآن.

الفصل الثاني
الصعود عشر درجات

٥. رزمة الجرائد....والحبل المدلّى

من حسن الحظ أني سبقته، يبدو أنه كان متردداً، أو خَجِلاً، أنا العجوز سبقته، قلت هي مسألة ثوان، عشر درجات صعدتها بسرعة، علينا أن ندركها قبل أن تغادر الشقة. يبدو أنه تلكّأ عن عمد، حتى لا يراها. في الباب رأيتُها، تجرّ حقيبتها الثقيلة على الأرض، والحقيبة ما تزال في فتحة الباب، جسدها كله خارج الباب، ظهرها لنا، تحمل على يدها معطفاً، وتجرّ بالأخرى الحقيبة.

ـ اسمحي لي أن أساعدك على إدخال الحقيبة.

التفتت مدهوشة، مسحت دموعها، ابتسمت، كادت تضحك، بل ضحكت، ضحكتها ساخرة، مقموعة، مقهورة، قالت:

ـ أنا أجرّها إلى الخارج.

قلتُ مؤكداً بجِدّ:

ـ تفضلي أمامي إلى الداخل وأنا سأجرها إلى الخارج، يمكن أن نتركها في الخارج، إذا شئت، لن يسرقها أحد.

ضحكت، ضحكت أكثر، ثم انفجرت باكية. ظهرت الجدة العجوز.

ـ لأجل الجار الكريم، عودي.

أقول لها:

ـ أنت مثقفة، وواعية، تفضلي عودي.

الزوج يقف جامداً أسفلِ الدرج، قريباً من باب شقتي، لا يأتي بحركة، كأنه تمثال من ملح، يبدو لي قصيراً جداً، ناحلاً، ملفوفاً بجلابيته البيضاء، أصفر الوجه، لا يمكن أن أقول كأنه زنبقة بيضاء، بل لا بد أن أقول كأنه ميت نهض من قبره وهو ملفوف بكفن، كالمومياء.

❖

حقيقة هو مهمل نفسه، أنا ما تنبّهت إليه، أمه نبّهتني، والآن تنبهت أكثر، زوجته فوق في كامل أناقتها، قوام رشيق، وأناقة لا تكلف فيها، وعطر ناعم خفيف، على الرغم مما هي فيه من غضب، كما يقول المثل: "يا حزين، خليك فَطِين". وهو دائماً ينزل إلى شقتي بهذه الجلابية، لا يعتني بمظهره، ذقنه خشنة، شعره أشعث، عيناه متورمتان، كأنه لم يغسل وجهه بعد استيقاظه. حقاً، صدقت أمه حين قالت له

يجب أن تحلق ذقنك، أُحِسُّ الآن بالنفور وأنا أراه في هذه الجلابية البيضاء، صرت أكرهها، كأنها كفن تلفّه، وهي قديمة، ضيقة، هو ناحل، ولكنه وهو في داخلها يبدو أكثر نحولاً، كأنه مريض ممدّد في سرير مشفى.

يا إلهي، ما هذه الأم، كم هي صادقة مع نفسها، مع ولدها، حتى العيب تراه في ولدها، وتدلّه عليه؟؟ رحمتك يا إلهي، أين أنت ياجدتي؟ ليت لي الآن جدة مثلها تُهدي إلي عيوبي.

❖

التفتتْ زوجتُه إليه، رمقته بنظرة حِرْتُ في تفسيرها، فيها غضب، فيها أنوثة، فيها أمومة، عينان سوداوان، عينا أم. يرحمك الله يا أمي، لا يمكن أن أنسى عينيك السوداوين الدافئتين. تقول الجدة:

ـ ادخلي يابنتي هذا بيتك، ليس بيته.

❖

ليس بيتها أيتها الأم، أيتها الجدة، ولا بيته، ولا بيتي، هو بيت المدير، نحن لا بيت لنا، هل أبالغ فأقول إنه لا وطن لنا أيضاً؟ الوطن كله له؟ أنت حتى الآن لم تعرفي كل شيء أيتها الجدة الأم.

❖

تظل واقفة في الخارج، وهي تقول لها:

ـ شكراً لك.

تلتفت إليّ، تقول، وهي تنحني لي بأدب، كأنها مضيفة في مدخل طائرة:

ـ تفضل، ياعم، أهلاً بك.

أظل واقفاً بالباب، تطلّ على زوجها من فوق، وهي تبتسم:

ـ تفضّل، يا زوجي، تفضّل.

أنظر إليه، أحس به قد صَغُر، تضاءل، كأنما ذاب، تلتقي أنظارنا، أشير إليه برأسي، فيتحرك، يصعد، كأنه رجل آلي، يصعد جسمه قطعة قطعة، بهدوء، كأنما يصعد إلى مشنقة، أبقى أنا في انتظاره، تبقى هي في انتظاره، إلى أن يصل، يقول لها، وهو يشير بيده كمن يرحب بالآخر:

ـ تفضلي.

تصرّ على موقفها، وهي ما تزال تمد يدها نحو الباب منحنية كأنها رئيسة التشريفات، قائلة:

ـ تفضّل أنت، أولاً.

يتقدم بخطا بطيئة، كأنه سيدخل إلى قاعة المحكمة، يهم بالدخول، ولكن سرعان ما يلتفت إليّ، ليقول:

- تفضل.

❖

تحتوينا غرفة الضيوف، غرفة صغيرة متواضعة، لا أعرف لماذا شعرت أنها أصغر من الغرفة التي هي تحتها عندي مباشرة، هي مثيلتها، ولكن أحسست أنها أصغر، مقاعد وأرائك قديمة كبيرة الحجم، من نمط قديم، يرجع في العمر إلى عشرين عاماً، لا شك في أن الزوجين قد اشترياها من المحلات التي تبيع الأشياء المستعمَلة، أو لعلهما ورثاها، أو لعل أحداً تبرع بها لهما. أشياؤنا هي ذواتنا، بهذا المعنى كانت جدتي تقول لي دائماً، تنصح لي أن أُعنى بأشيائي.

كم أكره السبَّحة الكهرمانية التي يحملها دائماً المدير، السيد هشام، يطقطق بها، وهو يكلّمك، يضعها في ساعده، يشير بها، هي جزء منه، بل هو جزء منها. كم أكره النظارة الطبية السوداء التي يثبّتها دائماً على أنفه بدفعة من سبباته مديري الآخر، السيد أكرم.

❖

"هناء" تسرع نحوي:

- أهلاً جدّي.

أميل عليها، أقبّلها. الأم والزوجة قعدتا متباعدتين على أريكة واحدة، كل منهما على طرف، أنا والزوج كلٌّ منّا في مقعد منفرد، الزوجة تبادر:

- أهلاً بك ياعم، هذه أول زيارة من طرفك لنا، أنت شرّفتنا بهذه الزيارة، مرحباً بك في كل وقت، وأنت في منزلة الوالد.

- شكراً لك يا بنتي.

- شكراً لحضوركم في هذا الصباح الربيعي الجميل، حضوركم جعله أجمل، ويسرني أن أدعوكم إلى المطبخ، المائدة جاهزة، الفضل لحماتي، سنتناول المأمونية والشعيبيات لتصبح أيامنا حلوة.

❖

ما هذه القوة، كيف يمكن أن تسيطر على مشاعرها بهذه السرعة، لا أصدق، إما أن تكون كاذبة منافقة تبيِّت شراً وتريد أن تنتقم فيما بعد، وإما أن تكون حقيقة قوية، تمتلك مثل هذا النضج الاجتماعي، والقدرة على السيطرة على الانفعالات وتحويلها، لعلها تريد أن تتماسك وتظهر بمظهر القوة، وهي تنهار من الداخل،

ولـيـكـن، هـذا هــو الموقـف الحضــاري والاجتمــاعي الصــحيح. أنــا لا أســتطيع ضــبط انفعالاتي.

❖

ننهض، نتجه نحو المطبخ. المطبخ واسع، مطل على الحديقة، مثل مطبخي الذي هو تحته، ولكنه يبدو أوسع، ليس فيه سوى مصطبة صغيرة ومجلى، ومنضدة صغيرة، وبضعة رفوف خشبية تقليدية ثُبِّتَتْ على الجدار، صُفَّتْ عليها بعض الصحون، وليس ثمة خزانة، ولاشيء آخر. الزوجة تدعو حماتها للقعود على رأس المائدة، بإشارة لطيفة منها تدعوني للقعود إلى جوار زوجها، تقعد هي قبالة زوجها، إلى جوارها تضع ابنتها على كرسي مرتفع. في وسط المائدة مزهرية بيضاء صغيرة، فيها وردة بيضاء. سناء تتكلم:

ـ الشكر لجاري، هناء ابنتي كل يوم تنزل إلى شقته، فيزوِّدها بوردة من الحديقة.

❖

قبالتي على الجدار لوحة الطفل الباكي، اللوحة الشعبية الرخيصة، حيثما ذهبت طالعتني، على الرصيف، عند الحلاق، في غرفة الانتظار عند الطبيب، لا أعرف لماذا يريدون للطفولة أن تبكي؟ لا أعرف لماذا يحبون الطفولة الباكية؟ ما أظن الدموع المتحدِّرة على الخدين إلا مضافة على الصورة الأصل، لماذا نحن نحبّ البكاء؟ الطفل في الحقيقة موفور الصحة، مورّد الوجنتين، ولكنه متجهّم الوجه.

❖

الأم تتنبّه إلى تحديقي في اللوحة، تلتفت، تعلّق، تسأل مستنكرةً:

ـ أنا لم أشاهد هذه اللوحة الأسبوع الماضي.

هناء تتكلم كأنها تغرّد:

ـ هذا بابا هشام، وهو صغير.

الجدةّ تسأل مدهوشة:

ـ من قال لك هذا؟

ـ لا أحد قال لي، أنا عرفت، هذه صورة بابا وهو صغير مثلي.

وتضحك، تقهقه، ثم تضيف:

ـ بابا وهو صغير كان يبكي، أنا، وأنا صغيرة، لا أبكي، أنا أضحك.

❖

صدقتِ يا بنتي، ما مضى على معرفتي بوالدك غير سنة وبضعة أشهر، منذ سكنِهِ هنا فوق شقتي، حتى عرفته، نعم، هذه صورة والدك وهو طفل، وهذه صورته

وهو شاب، وهذه صورته وهو رجل، وهذه صورته حتى آخر لحظة في حياته، والدك وُلِدَ وهو يبكي، وظل طول عمره يبكي، لا ينطق الأطفال إلا بالحق، صوتهم هو صوت الحق، الأطفال لا يكذبون.

❖

هناء ما تزال تضحك، تقهقه، هشام متشنج، الجدة تعلق:

ـ لا يا حبيبتي، بابا كان يضحك مثلك، وهو صغير، بابا طول عمره ما بكي، أنا ربيته على العزّة، هذه صورة ولد رسمها فنان، هي صورة من الخيال. أسأل الله تعالى ألا يبكي أحد، لا من الكبار ولا الصغار.

❖

صدقتِ يا أمي، بارك الله فيك، توفي والدي، ولكن ما شعرت باليتم، أنت ربيتني على العزة، ما عرفت معنى اليتم ولا معنى الموت، توفي وأنا ابن ثلاث سنين، أنا لا أعرفه، وأختي أكبر مني بست سنين، لكن الدنيا بعدها ظلمتني، والشقاء بعد العزة صعب.

❖

الزوجة تتكلم بهدوء:

ـ هشام اشترى هذه اللوحة قبل يومين فقط، اقترحت تعليقها في غرفة الجلوس، ولكن أصرّ على تعليقها هنا في المطبخ، لأن أكثر جلوسنا في المطبخ.

الأم تتحدث موجهة الكلام إلى ابنها:

ـ من الأفضل لو علقت في موضعها آية قرآنية، مثل قوله تعالى:"كلوا واشربوا ولا تسرفوا".

❖

الزوجة تلتفت إلى حماتها، تستأذنها، ثم تبدأ بملء الصحون، مأمونية شهية، رائحة السمن العربي تسطع منها، الشعيبيات هي قباب من ذهب، جبن أبيض شهي، وخبز أبيض رقيق. حبل طويل يتدلى من السقف، في طرف المطبخ، ربط في نهايته كرسي، هو من غير شك أرجوحة لهناء. أسأل هناء مداعباً:

ـ هذه أرجوحتك يا هناء؟

ـ نعم ياجدي.

ـ هل تسمحين لي بالأرجحة فيها؟.

ـ نعم، أسمح لك، ولكن بابا قال: هذه أرجوحة للصغار، ومشنقة للكبار.

هشام يضع اللقمة من يده، يمد يده إلى كأس ماء، يرتشف جرعة، يمدّ يده إلى علبة المناديل الورقية، يمسح فمه، ثم يمسح جبينه. يتكلّم:

- متى قلت أنا لك هذا الكلام؟ وكيف حفظت أنت كلمة مشنقة؟ والله أنا نسيت.

وتتكلم الجدة، موجهة الخطاب إلى الزوجة:

- الله يرضى عليك يا بنتي، انتبهي إلى هناء، إحدى قريباتي نصبت أرجوحة لابنتها في الشرفة، وذات يوم غفلت عنها، فالتفّ الحبل على عنقها، واختنقت.

وتتكلم الزوجة:

- نحن وضعنا الأرجوحة في المطبخ، لا في الشرفة، حتى تبقى هناء دائماً تحت نظري.

ويتكلم الزوج ممازحاً وهو يتوجه بالخطاب إلى أمه ومشيراً بيده إلى الزوجة:

- قولي لها تهتم بي.

وتعلق الجدة:

- أنا مطمئنة إلى أن كل اهتمامها هو فيك أنت.

❖

رزمة صحف مرصوصة بقوة، وقد حزمت، بعلو نصف متر، أو أقل، مركونة بجوار باب المطبخ، أعلّق، وأنا أشير إلى الرزمة:

- ما كنت أعرف الأخ هشام يهتم بالسياسة إلى هذا القدر، أعرفه محاسباً فقط يهتم بالأرقام، ما حدّثني أبداً في السياسة.

تلتفت إليّ زوجته، تعلق:

- هذه أعداد الجريدة الأسبوعية، التي تصدر كل يوم خميس مساء، جريدة الحوادث، أبيض وأسود، لا ينام حتى يقرأ فيها كل أخبار الجرائم والسرقة والاغتصاب والاعتداء والقتل، ويستقيظ في الصباح، وهو في حالة من الغم والقهر والغضب، كما تعرف.

- هذه أعداد خمس سنوات؟

- لأ، هذه أعداد المجلة من سنتين تقريباً، أو أقل، من بداية سكننا في هذه الشقة.

- ولكن هذه الرزمة كبيرة.

- معها كل أعداد الجرائد المحلية اليومية، وهو لا يقرأ فيها غير صفحة الشكاوى، وصفحة الحوادث، وصفحة الوفيات، حفرة في شارع، جدار يهبط، انقطاع التيار الكهربائي، انفجار ماسورة مياه، تراكم القمامة، فقدان جواز سفر، كل ليلة أيضاً قبل أن ينام لا بد أن يملأ رأسه بهذه المشكلات، وفي الصباح، يعيد النظر فيها قبل خروجه.

وتتدخل الأم سائلة بدهشة:

ـ وهل تنشر الجرائد مثل هذه الأمور؟

وأرد:

ـ نعم يا خالة، هناك صفحة خاصة بمثل هذه الأخبار في كل الصحف.

ـ ولماذا تنشر في الجرائد؟

ـ هي شكاوى من المواطنين ليطلع عليها المسؤولون ويقوموا بالإصلاح، الصحافة تقوم بدور الرقابة، وهو دور مطلوب، ولذلك يسمونها السلطة الرابعة.

ـ أنا لست مع نشرها، لماذا لا يتقدّم بها المواطنون مباشرة إلى المسؤولين، لماذا لا تكون أبوابهم مفتوحة دائماً لهذه الشكاوى، نشر هذه الشكاوى هو فضيحة أمام العالم كله، أنا لا أعرف، ولكن هذا رأيي، لعلي أنا على خطأ.

وأردّ معلقاً:

ـ هذا ياخالة تأكيد للحرية.

وتلتفت إلى ولدها لتقول له:

ـ الله يرضى عليك ياولدي، لماذا تملأ رأسك بهذه الجرائم؟ الأفضل تلاوتك القرآن الكريم قبل النوم وقبل خروجك إلى المعمل، الله يرضى عليك، وبثمن هذه المجلات والجرائد يمكن شراء خزانة للبيت.

وتضيف الزوجة:

ـ هو لا يشتريها، مدير المعمل يعطيه الجرائد، في البداية كان يقرأ الجرائد المحلية فقط، يعطيه إياها المدير، مثلما قلت لكم، يقرأ فيها فقط صفحة الشكاوى المحلية، ثم بدأ يشتري مجلة الحوادث الأسبوعية، وهو يحتفظ بها، جعل منها مثل مقعد له، هناك وراء الباب رزمة أخرى أعلى، يفكر في ربطها إلى جوار هذه الرزمة لتصبح مثل درجة سلم أصعد عليها لمسح الرفوف.

وتتكلم الأم:

ـ لا يا بنتي، الله يرضى عليك، لا يمكن الصعود فوق مثل هذه الجرائد، أخشى أن تسقطي بسببها، هي زلقة، ألف سلم نظامي من خشب يخدمك، غداً في الصباح سيكون عندك سلم من خشب، ضعي هذه الجرائد أمام الباب ليأخذها عامل القمامة.

ويتكلم هشام متدخلاً:

ـ لا يا أمي، لن أرمي بها.

ـ ولماذا توجع رأسك بها؟

ـ هي وحدها الحقائق، وكل ما عداها من أخبار كذب وتزوير، غداً سيُكْتَب التاريخ من خلالها، هي وحدها التاريخ.

وأتدخل معلّقاً:

- لم أعرف فيك هذا الميل للجريمة من قبل.

- ليس الجريمة، وإنما الحقائق.

وتتكلم الزوجة:

- المدير يريد إغراقه في الجزئيات والتفاصيل اليومية، أنا نصحت له قراءة أعمال وليم شكسبير، عندي أعماله كلها بالإنكليزية والعربية، أعطيته هاملت وماكبث وعطيل والملك لير ويوليوس قيصر، كلها قصص جرائم، ولكن من منطلق إنساني، وبرؤية فنية راقية، أحد النقاد يعتبر شكسبير كاتب رواية جريمة من الطراز الأول.

❖

أنا قرأت معظم هذه المسرحيات، لا يعقل أن يصبح شكسبير هكذا ببساطة كاتب روايات جريمة، ليس من اللائق مناقشة زوجته، وأنا ضيف، وهي في مثل هذه الحالة من التوتر، لاشك في أنها تريد إقناع زوجها بالعدول عن الصحافة ليقرأ شكسبير، كم هي ذكية. كلّما تقدم الإنسان في العمر اكتشف سوء العالم وقبحه، كلما تقدم في العمر اكتشف الفساد والكذب والرياء، كنت في أيام الشباب أتابع عدة صحف، أصدّق كل ما يكتب فيها، ثم اكتشفت أن ما تورده من أخبار عن الوقائع لا يخلو من مغالطة، أو يُصاغ بلغة غير محايدة، أما التحليل والتعليق فنادر، وسطحي وليس فيه شيء من الحرية، وهو يعبّر عن وجهة نظر واحدة هي وجهة نظر دولة أو سلطة أو حزب، وليس فيها رأي حر أو مستقل. من المؤسف أن أكثر القراء لا يقرؤون ما قد يكون في الجرائد من تحليل أو تعليق، إنما يقرؤون أخبار الوقائع، وفي كثير من الأحيان يكتفون بالمرور على العناوين العريضة. الجرائد في رأيي تجعل القارئ يغرق في الوقائع اليومية ويضيع في الجزئيات والتفاصيل ويعيش حياته يوماً بيوم، ولا يستطيع أن يمتلك النظرة الكلية الشاملة، هذا رأيي أنا، لعلي على خطأ، كما قالت الجدة. أشد ما أسخر عندما أرى شخصاً يتأبط عدة جرائد، ويسير بها ماضياً نحو المقهى، يتوهم نفسه مثل زعيم سياسي، يدير شؤون العالم، أو يظن نفسه قد عرف كل شيء، لأنه طالع صحيفة أو صحيفتين.

فقل لمن يدَّعى في العلم معرفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

يوم كنت موظفاً في مؤسسة البريد، كنت كل يوم عند الانصراف في الثانية والربع، أمر أمام المقهى، فأرى شخصاً قاعداً وراء الطاولة، وأمامه فنجان قهوة، وجريدة قد بسطها على المنضدة، وبيده قلم، وهو يدوّن، لفت نظري، كنت أراه كل يوم وراء المنضدة نفسها، في الزاوية نفسها، في الركن نفسه. بجلّتُه، قلت هو من غير

شك مثقف كبير، أو سياسي محترف، نظارته على أرنبة أنفه، والجد والوقار والتركيز الشديد كل ذلك بادٍ عليه، دفعني الفضول، دخلت المقهى، مررت بجانبه، عن عمد، ألقيت نظري على الجريدة، على القلم حيث كان يدوّن، رأيت مربعات صغيرة سوداء وبيضاء، كان يحلّ الكلمات المتقاطعة.

ويوم كنت موظفاً في مؤسسة البريد كنا نوزع على المؤسسات والدوائر الحكومية الصحف المحلية، ليطلع عليها المدير، وبعض كبار الموظفين، وهم بالطبع لا يطّلعون عليها، إنما يتصفّحونها، ثم يرمون بها، فهي كلها متشابهة، بل متطابقة، تنطق بصوتٍ واحد، وتعبر عن رأي واحد، وتؤكد على موقف واحد، حتى الصور فيها واحدة، طبعاً، ولا بد في الصفحة الأخيرة من كل جريدة من صورة لمطربة أو ممثلة أو عارضة أزياء، ولا بد للصورة من أن تكون فاضحة مثيرة، تغري الشباب بشراء الجريدة، والأنكى من هذا كله صفحة الأبراج، نحن في القرن الحادي والعشرين، وما نزال نروّج في صحفنا المحلية للأبراج، ونجعل الناس يعتقدون أن مستقبلهم تصنعه النجوم، طبعاً هذا مطلوب، كي لا يعرفوا أن مستقبلهم يصنعه القادة والساسة وحلفاؤهم من رجال الأعمال والاقتصاد، صناع القرارات. وبالمقابل، كثير من الصحف في الخارج كانت ممنوعة من الدخول إلى الوطن، ما عدا طبعاً مجلات الأزياء وفن الطهو وأخبار الفنانين، فهذه مسموح لها بالدخول، كنا نحن في البريد نصادر أي جريدة خارجية تصل إلى أي مشترك. لذلك رأى أرسطو أن الأدب أكثر فلسفة من التاريخ، لأن التاريخ يُعْنَى بما هو جزئي، وبما قد وقع فعلاً، في حين يعنى الأدب بما هو كلي وعام، وبما يمكن أن يقع على سبيل الاحتمال أو الضرورة. ولكن مع ذلك لا يمكن قبول رأي أرسطو على إطلاقه، ولاسيما فيما يتعلق بالتاريخ، فهو يفهم التاريخ على أنه تسجيل لما وقع فعلاً، ولكن التاريخ تجاوز ذلك إلى النظرة الكلية والتفسير والتحليل لما قد وقع وليس مجرد تسجيله. أنا الآن لا أقرأ الجرائد، أياً كانت، أنا الآن أعيش مع الحاسوب، الشبكة العالمية وفرت لي منافذ على العالم كله، أصبح بإمكانك أن تعرف أكثر، وبصورة أقرب إلى الحقيقة، لأن العالم كله أصبح مفتوحاً أمامك، العالم تغير، وسيتغير أكثر.

❖

هشام يصب لي من الكولا ويناولني، أردّ عليه:

- أشكرك، أنا لا أشرب الكولا.

٦. الصورة على الجدار

صوت ناعم هادئ كالهسيس لا أعرف من أين يأتيني، يهمس لي بلين وهدوء:

- هنا، حبيبي، لا بد من أن أستوقفك قليلاً، وقد استمعت أنا إليك طويلاً، ما تركت أنت شيئاً إلا تناولته، من اقتصاد إلى سياسة إلى دين إلى ثقافة، كنت تعبّر عن وجهة نظرك، وهي وجهة نظر انفعالية، تقوم على أحادية الرؤية، لاتدرك الواقع العملي، ولا تنتمي إلى الوطن، بل تعبّر عن وجهة نظر خارجية، وفكر دخيل، هو الغزو الثقافي بعينه، وهو العولمة التي يبدو أنك تنتمي إليها، وحان الوقت لكي تستمع، استمعني أنت الآن إلى النهاية من غير مقاطعة، وحافظ أنت على هدوئك، ولا ضرورة للتوتر والانزعاج والانفعال والتشنج، هشام يحبني، افتح قلبه، تجده يحبني، انظر إلى صورتي، كيف ملأ بها الجدار.

أرفع رأسي، الطفل أمامي في الصورة يبتسم، يمسح دموعه، يكبر، تملأ صورته الجدار، أشقر، طويل، لم تحن ظهره الأيام، لم تسقط شعرة من رأسه، ذقنه حليقة، بشوش الوجه، يبتسم، بل يضحك، وهو يتكلم:

- هذه العدائية لن تفيدك، ولن تضرّنا، أنت من جيل انتهى، نحن لا نعوّل عليك، أنت في الخامسة والستين، كل من في جيلك ماتوا، ولم يبق منهم إلا القليل، نحن نعوّل على الجيل الجديد، لاحظ هشام، كم يحبني، أبوه سماه باسمي، لأنه يحبني، هل تعرف؟؟ في السنة التي تحولت فيها ملكية المعمل إليّ بطرق شرعية، هي السنة نفسها التي مات فيها والدك، رحمه الله، وهي السنة نفسها التي ولد فيها هشام، الناس كلهم يحبونني، أنت تنطلق من العداء والكراهية، أنا معك حيث كنت، أسمع وأرى، كنتَ في شقتك تحدث نفسك كما تشاء، وأنا أستمع إليك، تغاضيت عنك.

صوته يغلظ، يعلو، نظرتُه تقسو، يقترب، يخرج من الجدار:

- أنت الآن في شقتي، يجب أن تعلم، حتى شقتك يمكنني الآن أن أمتلكها بصورة شرعية، وأرميك خارجها، ولكنني أشفق على شيخوختك، أنت بثرثرتك مع نفسك اجتزت المباح، أنت لا تعرف إلى أين تمتد مناطق نفوذي، أنت نلت من مجلة الحوادث التي أموّلها، أنا صاحبها، أنت لا تعرف، هناك أشياء كثيرة أنت لا تعرفها، حتى الكولا التي تعاديها، وتشن حملة عليها، حتى البسكويت، أنا شريك في معمل الكولا، وفي معمل البسكويت، معملك، معمل والدك، معملي أنا سوف أحوله إلى معمل رقائق بطاطا، هل تظن أني سأظل أعيش على آلات نسيج عمرها من عمر جدي وجدك، أنا التطوير والتحديث، أنت تجاوزت كل حدودك، أنت نلت من زواجي من ابنة أحد العمال، أنا أشفقت عليه، وتزوجت ابنته، وسددت كل ديونه، وأسكنته في شقة، وعالجته على نفقتي، وجارك هشام، أسكنته في شقة واسعة عريضة، بأجرة

زهيدة، وعرضت عليه توظيف زوجته في المعمل، أنا زرته مرة واحدة في شقته القديمة الضيقة، وما زرته في شقته الجديدة، وهي شقتي، حتى لا يظن أن نفسي في زوجته، أنا عرضت عليه توظيفها سكرتيرة في المعمل، وهو رفض، هو غبي، بل هو جبان، يخاف، لا يحبّ المغامرة، وأنا مع ذلك أحبه، أنا، ليكن في علمك، أنا لا أمارس الحرام، إذا اشتهت نفسي امرأة تزوجتها بالحلال، أنا طلقت مرتين، وتزوجت ثلاث مرات، الشرع معنا، أنا أحقق شرع الله، وأنت تعطّله، أنا أنجبت تسعة عشر ذكراً، وثلاث إناث، وأنت تريد قطع نسل آدم، أنت تحلم بالطوفان يغرق العالم، وأنا أشيد عشرات العمارات، أنا أحب الطفولة والأطفال، وأنت تكرههم، أنا أصنع لهم رقائق البطاطا والبسكويت والكولا، وأنت تريد حرمانهم من أبسط مواد الغذاء والتسلية، تفكيرك كله غلط، أنا متغلغل فيك، أعرفك، وأعرف نمط تفكيرك، وأعرف حتى أحلامك، لا تتحدث بعد اليوم عن الأدب والصحافة، لا تتحدث عن حديقة منزلك، لا عن الزهور ولا الرياحين، لا عن الربيع والجو اللطيف المعتدل، لا تتحدث بعد اليوم خاصة عن التدخين وعن النراجيل، ولا عن البسكويت ولا عن الكولا ولا رقائق البطاطا، هذه كلها حدودنا، هذه كلها اختصاصنا، لا تقربها، لا تقرب أي شيء، نحن نريد للناس أن يرفهوا عن أنفسهم، أن يتسلوا، نحن نستورد التبغ لأجلهم، ندفع ثمنه بالدولار، ونحن بنينا مصانع صغيرة للنراجيل، وأنت تريد أن تحرم الناس التسلية والترفيه عن النفس، نحن نستخدم كل شيء لبناء المجتمع وإسعاد الناس كلهم، نحن نملك رؤية مستقبلية متفائلة، وأنت تستعمل كل شيء لإشقاء البشرية كلها، أنت رؤيتك سوداوية، وتفكيرك انعزالي، هذه العجوز لا تصدقها بعد اليوم، ولا تحاول أيضاً تذكر جدتك العجوز، جدتك ماتت، وهذه ستلحق بها، أما هناء فهي طفلتنا، هي من حقنا، هي لنا، كل شيء لنا، لن أطيل عليك، راجع نفسك، صحّحْ مسار تفكيرك، وإذا لم تفعل، فهل رأيت تلك الحمامات التي عندك في القفص؟ أنا أنصح لك أن تذبحها، وتشرب دمها، وتلصق ريشها بأطرافك، ثم ادخل إلى موضعها في القفص، أنا لم أشأ إزعاجك، أنا حاورتك بلطف، ولكن عندي قوى خفية، لا تعرفها ولا تراها، لذلك خفف من هذه العدائية، والأفضل أن تتخلّى عنها، وتنضمّ إلينا، تعال إلى المعمل، قم بزيارتنا.

❖

الأم، الجدة العجوز، جدتي، تضع شعيبية متألقة كالعسل المصفّى في صحني:

- تفضّل يا ولدي، ذهنك شارد مع الصورة، أنت لست معنا، أنت لم تأكل شيئاً، يداك على الطاولة، وعيناك على صورة الطفل، ماذا في الصورة؟ هل جفت دموع الطفل؟ هل أخذ يضحك؟

تضع في صحني قطعة جبن بيضاء وهي تقول:

- تفضل، تناول طعامك، وهذه قطعة جبن، ملحها خفيف، من الضروري أن يفكر الإنسان وحده، مع نفسه، في بعض الأوقات، أفكارنا هي التي تصنع حياتنا، ولكن يجب ألا نبالغ في هذا النوع من التفكير، يجب أن نخرج إلى العالم، نرى الناس، نتحاور معهم. على كل حال الآن، ونحن أمام المائدة، وقت الطعام، لا وقت التفكير، تفضل.

- شكراً ياخالة، صدقت، ومن الضروري أن نأكل أيضاً، ولكن ليس كثيراً.

- يا ولدي، نحن في حلب نقول: الأكل على قَدْرِ المحبة.

- لو كان الأكل على قدر المحبة لما ترك لنا هشام أي شيء.

هشام يعلق:

- أنا بصراحة لا أحب الحلويات، أنا أحب كل ما هو مرّ أو حامض أو قابض، الفول والحمص عندي أشهى، وأرجو أن تعذريني يا أمي، أنت تعرفين، أكلت اليوم أكثر مما كنت أتوقع، كلما أكلتُ الحلوى شعرتُ بدوار، ووجع في الرأس.

الأم تضيف:

- لا يا ولدي، من واجبك أن تحبّ الحلويات كلها، أنت عندك زوجة حلوة وبنت حلوة وجار حلو، كل شيء حولك حلو، وأنا اليوم أحضرت الحلوى ليكون الجو كله أحلى وأحلى، أنا أم، يا هشام، وقلب الأم يشعر يعرف يحس بكل شيء ولو عن بعد، على كل حال الآن سناء ستعد لنا القهوة، حتى يزول تأثير الحلوى.

❖

آه، لو كان الطعام يحل المشكلة، دائماً نختصم ونختلف، ثم نتفق على المائدة، لا أنسى يوم كنت في العاشرة، اختلف هنا جاران في الحي، حي العرقوب، كان بينهما صحبة ومودة وعلاقة عميقة، ثم فجأة خرجنا من البيت على صراخ وأصوات، وإذا هما يتخاصمان في الشارع، وضرب كل منهما الآخر، وتلاكما، وسال الدم من الأنف والجبهة، لا أعرف بعد ذلك كيف تصالحا، فضّ بينهما الناس، وفي اليوم التالي دعاهما أبي إلى الصلح، وأقام مأدبة كبيرة في حديقة الشقة، دعا كثيراً من أبناء الحي، وتم الصلح، ليت تناول الطعام يحل المشكلة، الطعام هو رمز، حين نتناول طعاماً واحداً نصبح شركاء فيما دخل إلى جسمنا، أي إن خلايانا تكونت من مادة واحدة، وعلينا أن نكون جسداً واحداً، ولذلك يدعو بعضُنا بعضاً إلى الطعام، ليكون بيننا خبز وملح، كما يقال، لأن الخبز هو سر الحياة، ولأن الحاجة إلى الملح ضرورية ولا غنى عن الملح، ولأن الملح مادة كالذهب، لا تفسد ولا تتغيّر على مرّ الأيام، وكانت أغلى من الذهب، ولأجلها شُنَّتِ الحروب، ولذلك فالخبز والملح هما عهد وميثاق، هما

مادة الحياة التي تحفظ الحياة، وفي العشاء الأخير قسم السيد المسيح عليه السلام رغيف الخبز بين حوارييه، وقال لهم: "هذا جسمي فاقتسموه"، ثم صب لهم من الكأس، وقال لهم: "هذا دمي"، وهو لا يعني الجسد نفسه ولا الدم، إنما يعني دعوته وتعاليمه، فالخبز والشراب رمز، لكننا نسينا كل هذا، وجعلنا الطعام غايتنا، وحَسِبْنا أن الطعام وحده كلّ شيء، وليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، كما قال السيد المسيح أيضاً، وإن كان لا يحيا من دونه.

❖

أحاول النهوض والنزول إلى شقتي لإحضار القهوة المُرّة، ولكن الأم، الجدة تصرّ على أن نشرب القهوة من إعداد سناء.

❖

سناء زوجته مهذبة جداً، لا تكاد تتكلّم، هي أم حقيقة، تحنو على ابنتها، تطعمها بيدها، البيت هادئ مرتب نظيف، مع أنه فقير في الأثاث، لا يوجد فيه إلا القليل مما هو ضروري جداً، كأن الشقة شقة إنسان مهاجر. سناء أنيقة، على خديها قليل من الأحمر الشفّاف، كأنه احمرار الوجنتين من خجل، تقدّر حماتها حق التقدير، ترسل أحياناً نظرات إلى زوجها، نظرات فيها دفء وحنان، لا أكاد أحس فيها أي شيء من شكوى أو عتب، ما يزال في الأهداب بقايا من كحل، زال مع الدموع، وترك خطوطاً سوداء خفيفة جداً على الوجنتين.

❖

نرجع إلى غرفة الضيوف، نحتسي القهوة. الأم تتكلم:

- يا ولدي ياهشام، لا أريد أن أوصيك بسناء، أنت عندك أحلى زوجة.

الدموع تترقرق في عيني سناء، تمسح الدموع قبل أن تنزل من عينيها، تتكلّم بهدوء، وهي توجه الكلام إلى الأم الجدة:

- شكراً لك يا أمي، هشام أروع زوج، أنا أحبه، وهو يحبني.

تنهض، بسرعة، تتجه إلى المطبخ. أحس أنها هناك في المطبخ تجهش في البكاء.

❖

رقة ولطف، وفاء وهدوء، قدرة في السيطرة على الذات، حتى ملامح وجهها رقيقة شفافة هادئة، هشام ما كنت أراه هكذا، أراه الآن يزوي ما بين حاجبيه، تتعمق الأخاديد في جبهته، تضيق عيناه، يكبر أنفه، يتضخم، يا إلهي، فمه واسع عريض، ليس بالوسامة التي كنت أراه عليها، لا حظتُ عليه من قبل تقلقله الدائم في جلسته وعدم استقراره، رددت ذلك إلى حيويته وذكائه ونشاطه، ولكن الآن أراه في شكل

آخر، أكاد أكرهه، يا إلهي الألفة تقتلنا، وعين السخط تبدي كل المساوئ، بل تقلب المحاسن مساوئ، سامحني يارب.

❖

تتأخر سناء في المطبخ قليلاً، ترجع، تحمل صحناً بلورياً فيه سكر وملعقة صغيرة، تضعه أمام الأم الجدة، عيناها حمراوان، وأثر خطوط سود على الخدين من أثر الدموع التي مسحت الكحل، تتكلم بصوت مخنوق:

ـ سامحيني يا أمي، صنعت القهوة كلها من غير سكر، نسيت، أنت تحبين القهوة بالسُّكّر.

الأم الجدة تعلق ممازحة وهي تضع قليلاً من السكر في الفنجان:

ـ أعرف، يا سناء، أنت صنعت القهوة مُرّةً من غير سكر، من أجل هشام، أدام الله بينكما المحبة، قهوتك مرة، نعم، ولكن حياتك حلوة.

تلتفت العجوز نحوي، تكلّمني ممازحة:

ـ الشائع في هذه الأيام شرب القهوة مُرَّةً، أنا ما أزال أشربها حلوة مثل جدتي.

❖

حقيقة، جدتي، يرحمها الله، كانت تشربها حلوة، حلوة جداً، لا تشربها إلا طازجة، تأتيها جارتها أم خالد، تأتي بمحمصة صغيرة، هي أسطوانة حديدية سوداء، على حامل، ولها ذراع، تحت الأسطوانة قليل من الفحم، وتضع حبات البن في المحمصة من خلال فتحة لها مزلاج، وتأخذ في تدوير المحمصة، حتى يفوح شذى البنّ المحمّص. ثم تضع حبات البن في طاحونة يدوية نحاسية صفراء، وتأخذ في تدوير ذراع المطحنة، وإلى جوارها جارتها أم خالد، وهما تتحدثان عن الأصهار والزوجات والكنات والجيران والأقارب، وعن أنواع الأطعمة والأشربة والولائم والمناسبات والأفراح، ثم تأتي بصندوق معدني صغير تفتحه، تخرج منه قطعاً معدنية، تركبها، وتضم أجزاء بعضها إلى بعض، فإذا هي موقد نحاسي صغير، تصب فيه الكحول الأزرق، ويتصاعد اللهب، وتشرع في غَلْيِ القهوة في دلّة صفراء صغيرة، تصرّ على تحريكها وهي فوق النار، مرات ومرات، حتى تصبح أشهى، والعبق يملأ الغرفة، تصب فنجانين لجارتها ولنفسها، تقول لي:"أنت صغير على القهوة"، لا أعرف لماذا يحرِّمون القهوة على الصغار، ولكنها لا تلبث بعد قليل أن تقول لي: "تعال خذ اشرب، من أجل رائحتها"، وتصب قليلاً في فنجان أبيض كاللؤلؤ، وهو من الداخل أصفر لامع، كأنه مطلي بالذهب.

❖

الأم تعلن عن عزمها على المغادرة، الابن يدعوها إلى البقاء، ولكنها تؤكد عزمها قائلة:

ـ سأزور أختك.

أصرّ على توصيلها بسيارتي، وأنا أقول لهشام:

ـ اقترب موعد صلاة الجمعة، هيا، هيِّئ نفسك للصلاة، ريثما أرجع، لنذهب معاً إلى الصلاة.

عند الباب يقول لابنته:

ـ ما رأيك في الذهاب مع جدتك لتزوري عمتك، ولتمضي يوماً أو يومين عندها، فجأة خطرت على بالي هذه الفكرة، ما رأيك؟

وتعلّق الجدة:

ـ فكرة جميلة، تتسلّى معها عمتها، هذا إذا وافقت أمها.

وترد الأم بلطف:

ـ أنا موافقة.

ويضيف هشام متوجهاً بالكلام إلى زوجته:

ـ وما رأيك بالذهاب مع أمي لزيارة أختي؟

سناء، زوجته، تهز رأسها بلطف، دالة على عدم رغبتها. الأم تعلق ممازحة:

ـ لا، سناء زوجتك ستبقى معك، نحن سنُخْلي لكم الشقة، لتكون لكم الحرية كلّها.

هشام يلوي شفته السفلى ساخراً.

هناء تركض من الفرح نحو جدتها، تركض مثل فراشة.

❖

وأنطلق بالسيارة، أنا والجدة والحفيدة، أنا وجدتي وحفيدتي، أنا والحمامات البيض، وبالمناسبة سيارتي بيضاء.

كم يتحدثون عن صراع الأجيال، ما أحوجنا إلى هذا التواصل، ما أحوجنا إلى هناء وأمها، إلى هناء وجدتها، هذه هي الحياة الحق.

❖

ليحفظك الله يا حلب، كم كنت هادئة، كم أنت الآن صاخبة، مزدحمة، شوارعك تغص بالسيارات، أنت في عمر الجدة، ولكن في نشاط هناء، كم كنت أتشهّى التجوال بسيارتي في شوارعك، أصل حتى أطرافك، أطوف حولك، كما يطوف الحجيج حول الكعبة، الآن، كم أخشى اختراق شوارعك، لا أكاد أشتهي الابتعاد عن العرقوب.

الفصل الثالث
أمام إشارة المرور

٧. سيارة سوداء سيارة بيضاء

أرجع في السيارة وحدي.

تمنّيتُ لو ظلت معي الطفلة هناء، ذكية، مسلية، تسأل كثيراً، تسأل:"أين أولادك؟"، لا أعرف كيف أجيبها، "عندي بنت في أمريكة"، "وما اسمها؟"، "اسمها ليلى"، وتسأل:"تركنا ماما وبابا وحدهما، ترى ماذا تفعل ماما الآن؟"، تشبه جدتها كثيراً، الجدة تقول لي:"سأحدث ابنتي عنك، هل تسمح لي بذلك؟ هل يمكن أن آخذ منك الموافقة الأولية؟"، أقول لها:"أقلعت عن فكرة الزواج منذ زمن، مادام هشام على قيد الحياة فلن أتزوج، هشام مدير المعمل، لا هشام ابنك، حفظه الله"، تضيف: "أرجوك لا تترك ولدي وحده، ولدي طيب، ولكنه عصبي، وحاد المزاج، وقليل الخبرة". تودّعني أمام العمارة حيث شقة ابنتها وهي تقول لي: "أمانة ياولدي، الحمامات البيض في القفص، نسيت أن أوصيك بها، لا تتركها محبوسة، أطلقها، الله خلقها لتطير في الفضاء، لا لتعيش في قفص، أطلقها، ستحوم في الفضاء وترجع إليك، من الأجمل أن تراها وهي في الفضاء لا في القفص". أقول لها: "اطمئنّي، أوصيت أبو محمود حارس العمارة بحملها معه إلى قريته".

❖

أنت حقاً ربّة الحكمة، أيتها الأم، أيتها الجدّة العجوز، ولكنني بدأت أخشى سيطرتك، صوتك وحده يجلجل في الأعماق، أريد صوتاً آخر، صوتاً جديداً ناعماً، يوسوس يهمس، يعبّر ولا يكاد يعبّر، صوت هناء، وهي تقول لي:" تعلمت الدخول إلى الشبكة، أنا أرى السفن والبحار، أعرف أعلام الدول"، وهي ما تزال في الخامسة من عمرها، ترى ماذا ستقول لي غداً، بأي حِكْمة سوف تنطق؟ ليتني أعيش بضع سنين أخرى لأسمع صوتها، بدأت أحسّ أني بحاجة إلى صوتها، صوت العجوز، صوت جدتي، وحده لم يعد يكفيني.

❖

نصف ساعة أمضيتها في الذهاب ممتعة، لأن الجدة العجوز معي، لأن الطفلة الحفيدة معي، الجدة هي الحفيدة، الحفيدة هي الجدة، هما معاً الحياة، هما ضفتا الحياة، ما أحوج الرجل حقيقة إلى المرأة، ما أحوجني حتى وأنا في هذا العمر إلى المرأة، لا أعرف لماذا يختلف الرجل والمرأة، أو بالأحرى الزوج والزوجة، أظن أن الزوج يكره حياته مع الزوجة عندما لا يجد في حياته معها غير الطلبات، أريد ستائر جديدة، أريد

أثاثاً جديداً، اليوم تقيم وليمة لإخوتها وأخواتها، غداً لعماتها وخالاتها، بعدها هي مدعوة إلى مناسبات اجتماعية لا تنتهي، عندما لا يجدها إلا في المطبخ، لا يراها إلا في ثياب المطبخ، تتزين فجأة فقط عندما تزورها صديقاتها، تحتفي بهن أكثر مما تحتفي به، لا تذهب معه في نزهة، لا تدعوه إلى جولة في الأسواق لمجرد الفرجة لا لشراء الحاجات، يكره حياته مع الزوجة عندما لا يلقى من زوجته الاهتمام، ويجد نفسه مجرد مصدر للمال وتلبية الطلبات وتحقيق الواجبات. الجدة وحدها، لا تفعل ذلك، بل تشفق على حفيدها. الحفيدة وحدها لا تطلب ذلك.

الزوجة كذلك تكره حياتها مع الزوج إذا شعرت بمثل تلك المشاعر، بل تكره حياتها أكثر ولاسيما إذا أحست أنها مجرد طباخة في المطبخ، خدامة في المنزل، عاهرة في الفراش.

❖

هذه هي العرقوب أخيراً، لا أبتعد عنها حتى أعود إليها، هشام فيها، وفيها هشام، هشام المدير، وهشام المحاسب، هي عرقوب الوتر الرابط بين القدم والساق، هي عرقوب النجم العالي في السماء البعيد عن الأرض ٣٦٠ سنة ضوئية، هي الثرى، وهي الثريا، ياه ما أعلاها، وما أجملها، يرحمك الله يا أبي، أحسنت الاختيار، من هنا أرى حلب كلها، ما أوسعها وما أضيقها، كم هي حنون ودود، كم هي قاسية عنيدة، بيوتها حمامات بيض تلتف حول قلعتها، هي الجدة التي تحكي حكايات لا تنتهي، هي هناء الفراشة التي تعمل على الحاسوب ولها من العمر خمس سنين، تملك الحكمة مثل جدتها.

❖

لا بد من سائق يجتازني من اليمين، لا بد من سائق يجتازني من الشمال، الكل مستعجل، ولكن من غير هدف ولا غاية، من يملك هدفاً لا يستعجل، كي يضمن الوصول، لا وصول بالعجلة. سيارتي قديمة، بالوعة وقود، هي سيارة إقطاعي كبير، ورأسمالي أكبر، يملك شقة يعيش فيها، يملك شقة أخرى يعيش من أجرتها، يملك راتبه التقاعدي، يملك جدة تزوره في الحلم، يملك حفيدة تزوره في الواقع، وفي الحقيقة لاجدة ولاحفيدة، لا شقة ولا أجرة، هما شقتان قديمتان في حي لم يعد يصلح للسكن، في حي أصبح يكتظ بالمصانع الصغيرة، لا حقيقة سوى هشام، ولكن أي الهشامين أعني؟ لا أعرف، لا خلاص إلا بالطوفان، طوفان جديد، ونوح جديد، وتظل زوجته وولده من الغارقين، قد يغرق هذه المرة نوح نفسه، فليغرق، وعلى الدنيا السلام، يبدو لن يكون على الدنيا السلام إلا بالطوفان.

❖

يا إلهي، أنتحي جانباً، أوقف السيارة بمحاذاة الرصيف، ألتقط أنفاسي، أستردّ وعيي، كيف خرج بسيارته من الشارع هكذا كالبرق؟ الإشارة أمامي خضراء، والإشارة أمامه حمراء، لا أكاد أصدق، وشرطي المرور واقف أمام دراجته الفخمة، رآه، لم يتحرك. بين سيارتي وسيارته بضعة سنتيمترات فقط، ثانية واحدة، لولا سرعة تحكمي بسيارتي لطارت سيارتي وسيارته، وطرت أنا، بل لولا تحكُّمه هو، فهو الأشجع والأسرع والأبرع، طبعاً، وهو الأغنى والأقوى والأذكى. لو بعتُ أنا شقتي التي أسكنها، والشقة التي أعيش من أجرتها، لما تمكنت من تصليح سيارته، أو سداد ثمنها، سيارتي شيفروليه عام ١٩٥٥، ثمنها عشرة قروش، هي سيارة والدي، ليرحمنا اللّه، سيارته مرسيدس موديل هذا العام ٢٠١١، سوداء، زجاج نوافذها ضبابي، هي سيارة والده، ليحفظهما اللّه.

❖

يا إلهي، ليت لي مصحفاً لأقرأ فيه الآن، سامحني يارب، أنا عبتُ على هشام المدير وضعَه مصحفاً أمامه في السيارة وراء المقود، وأنا ليس عندي مصحف لأقرأ فيه الآن؟! ماذا لو كانت منيّتي قد حانت؟ أنا لا أخاف الموت، لا بد من الموت، هو انتقال من هذه الدار، دار الشقاء والفناء، إلى دار النعيم والبقاء، هو لقاء مع وجه اللّه تعالى، ولكن ويلي؟! كيف سألقاه، وأنا ما صمت ولا صليت، ولا حججت ولا زكيت، ولم أقرأ كتابه الكريم؟ أمس انقضى، اليوم مضى، العمر كله راح، ماذا جنيت في حياتي؟ ماذا قدمت لنفسي؟ ويلي؟! غرقت في جزئيات وتفاصيل، شغلتني الحياة الدنيا، شغلني هشام وهشام وهشام؟ في أي شيء سينفعني هشام؟ أتوسل إليك يارب سامحني، ليتني أسترجع بعض ما أحفظ من القرآن الكريم:"الحمد للّه رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين"، ويلي، أي حياة أنا عشت؟، خمسة وستون عاماً مضت هكذا؟ وأنا الآن أواجه موتي؟ حياتي فارغة، لا مال ولا بنون، حتى لو كان عندي مال وبنون، ففي أي شيء سينفعني المال والبنون؟! سأنطلق الآن فوراً إلى البيت، سأمر بهشام، ونمضي إلى الجامع، وسأعكف على تلاوة القرآن الكريم، سأصلي، سأصوم، بعد عشرة أيام سيهلّ علينا شهر رمضان الكريم، يا إلهي، أستغفرك يا رب، وأتوب إليك.

❖

قرأت اسبينوزا، وماركس، وفرويد، وسارتر، كنت أحلم بالكتابة عن الإسلام والجنس والوجودية والشيوعية، عرفت أشياء كثيرة عن الجنس والشيوعية والوجودية وعلم الأديان، الحقيقة عرفت بعض الجوانب، كنت أظن أني عرفت كل

شيء، ولكن اكتشفت بعد ذلك أنني لم أعرف إلا القليل، كنت أظن أني أعرف كل شيء عن الإسلام، فأنا مسلم، ولكن تبين لي فجأة أنني لا أعرف شيئاً، شغلني هشام، شغلتني الحياة الدنيا، أخيراً أجد نفسي لم أفعل شيئاً، يدي صفر من كل شيء. حياتي فارغة حقيقة، لا أعرف، كيف تورطت في الكتابة عنها، أي رواية هذه؟ كم هي سخيفة وفارغة ومملّة، لا حوادث كبيرة فيها، لا جريمة، لا قتل، لا حب، لا جنس، من سيقرأ هذه الرواية؟! هل أمزّقها؟ خسارة فيها ثمن الورق. أكثر الناس عندنا لا يقرؤون، مصدر ثقافتهم الأول التلفاز، اهتمامهم الأول في المسلسلات، ولا سيما الهابطة. صديق لي تلقى العلاج في مشفى بلندن، روى لي، ولم أصدّق، هو نفسه فوجئ، ممرضة تدخل تدفع أمامها عربة فيها كتب، تطوف بين أسرّة المرضى تعرض عليهم استعارة ما يشاؤون من كتب للقراءة، تزورهم كل يومين مرة.

مرة كنت عائداً بالحافلة من دمشق، فرأيت شاباً في مقتبل العمر، ينهض ليحدّث معاون السائق، ورأيته يقدم له قرصاً مرناً، وضعه في جهاز العرض، وإذا هو فيلم "هاملت"، سررت جداً، ولكن بعد بضع دقائق سمعت أصواتاً من الحافلة تعلق:"ماهذا الفيلم"، "مللنا منه"، "ضع لنا غيره"، وسرعان ما نهض المعاون، ووضع فيلماً جديداً، وأمضيت ثلاث ساعات مع المصارعة اليابانية، والجيدو والكاراتيه، عاتبت المعاون، فقال لي: "هذا ما يريده كل المسافرين"، حاولت مرات كثيرة إغماض عيني، حاولت النوم، فلم أستطع.

في كل مرة أسافر فيها في الحافلة فلا بد من أفلام كوميدية هابطة جداً، أو أفلام الجيدو والكاراتيه، سألت المعاون: "هل عندكم أفلام أخرى"، أجاب:"لا"، سألته:"لماذا لا تشتري الشركة غيرها، والله مللنا منها"، أجاب ساخراً:"ماذا تريد أستاذ؟ أفلام الكعبة والحج أو أفلام السكس، هذه هي الأفلام المسموح بها". صمتُّ، لم أستطع مناقشته، منذئذ بدأت أضع على عينيَّ كمّامة سوداء خاصة، كي لا أرى الأفلام، وفي أذني سدادة، كي لا أسمع، طبعاً وما عدت أتكلم، وأنا من قبل لا أتكلم.

❖

أنطلق بسيارتي، أفتح المذياع، أبحث عن محطة تبث القرآن الكريم:"**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ❖وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ❖وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ❖ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ❖أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ❖أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ**

أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ❖بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنْ الْكَافِرِينَ❖".

❖

ولكن، لا، لم تكن حياتي فارغة إلى هذا الحد، كان فيها حب، وفيها جنس، وفيها ما فيها، ولكن حتى الآن لم أبح بكل شيء، لم أجد الوقت مناسباً، ولا الموضوع ذا صلة، هل أبوح الآن؟ هل أعترف؟ هل أتحدث عن ثوب زفافها الأبيض وعن ابنتها؟ هل أتحدث عن الجلابية البيضاء التي لا أحبها، بل أحبها وأكرهها؟؟. يقال إن الإنسان إذا سقط من الدور العاشر، فإنه في أثناء سقوطه يسترجع شريط حياته كلها.

هل أسترجع ذلك الشريط، كم هو ممتع استرجاع الماضي، كم هو ممتع أن نعيش مرة ثانية ما عشناه من قبل، ولو بالخيال أو الكلام. كان في حياتي ما يمكن أن يُروى، ولو لم يكن له علاقة بالمدير. ولكن المدير كان له تأثير بشكل ما حتى فيما كان في حياتي من حب.

❖

قال لي أكرم ذات مرة، وأنا أكرهه وأكره سماجته:

- كل شيء جميل، بشرط أن ترى علاقاته بما حوله وتدرك الغاية منه، بحسب موضعه هو مما حوله، لا بحسب نظرتك أنت أو موضعك، كل شيء له قيمة وغاية.

لا أعرف ماالذي جعلني أتذكر كلامه الآن.

٨. الجلابية البيضاء

كنت قد قررت ألا أتزوج أبداً، هو قرار اتخذته وأنا في العشرين من عمري، بعد وفاة والدي واستيلاء هشام على المعمل، قلت سأنذر نفسي للحق، وسآخذ حقي، وحتى من غير أن أقرر ذلك كانت متابعتي الشكاوى والدعاوى ضد هشام وانشغالي بأمور الاستيلاء على المعمل قد صرفتني عن الحب والزواج. بقيت خمساً وعشرين سنة أو أكثر أناضل، وما من نتيجة. ومع ذلك فقد تسلل الحب إلى قلبي، غزاه، ومع ذلك فقد تزوجت.

❖

دخلت عليّ في مكتبي في مؤسسة البريد، وأنا رئيس الدائرة، سمراء، ناحلة، رشيقة الحركة، تغنج بصورة عفوية في كلامها وصوتها وحركة يديها، كل ما فيها يغريك بها، أنف دقيق ناعم، فيه شمم وارتفاع، تودّ لو تقبل عرنونه، لو تلعقه، عينان سوداوان، شعر أسود ناعم منسدل على الكتفين، مثل موسيقا هادئة، يغريك بلمسه، كنت أعيب على من يدخل إلى معرض فني ويأبى إلا أن يلمس اللوحة، فإذا أنا وهي

أمامي أود لمس شعرها، غمرني عبقها، أول مرة أشم فيها رائحة أنثى، قعدت إلى جواري، لا أعرف في أي عطر قد استحمت، هي خيمة عطر، وأنا دخلت فيها، شفتان سمراوان، فيهما حُوّةٌ تغريك بالقضم، وحمرة في الخدين، حقيقة مثل تفاحتين، كنت أسمع تشبيه الخدين بالتفاح ولا أصدق، فإذا أنا أمام تفاحتين، تتكلم وترجع شعرها بيدها إلى وراء، فينكشف عن عنق هو القهوة بالحليب، تود لو تخبئ وجهك فيه، حقيقة أنا بحاجة إلى عنق أخبئ وجهي فيه، كانت أمي تضمني إلى صدرها، أخبئ وجهي في عنقها، فأنام، أنا الآن بحاجة إلى هذا العنق.

❖

كنت في الخامسة والثلاثين، أيامي كلها شقاء ومتابعة لأمور المعمل وشكاوى ودعاوى، أنستني كل شيء، قالت لي:"هذا قبول للعمل بالتدريس في المملكة، أريد مشاورتك"، وبجرأة قلت لها:"أدعوك مساء إلى فنجان قهوة في مقصف الاستراحة"، ترددتْ، ثم وافقتْ، تأخرتْ عن الموعد نصف ساعة، قلت لا بد من استيعابها، لعل ظروفها لم تساعدها، فالمرأة عندنا لا تملك الحرية الحق، والتقينا مرة ثانية، وثالثة، كأنها السكر الأسمر، حلّت في كأسي، فرشفتها، كأنها الشاي بالحليب، أشتهيها ولا أعرف كيف سأنالها، نسيت المعمل والمدير وجدتي وأمي، كانت أمي قد توفيت.

هي شابة جامعية، متخرجة في كلية العلوم، راجعتني لاستلام رسالة مسجلة جاءتها من المملكة العربية السعودية، العنوان لم يكن دقيقاً، بقيت الرسالة في البريد قرابة الشهر، لم يتسلّمها أحد، كنا على وشك إعادتها إلى مصدرها، استشارني رئيس قسم الرسائل المسجلة، قلت له هات الرسالة، شعرت أن فيها شيئاً مهماً، فهي من وزارة التربية، قلت لا شك فيها عقد عمل، أو قبول بالعمل في المملكة، قرأت الاسم والكنية، طلبت من المقسم العام إعطائي أرقام كل العائلات التي تحمل الكنية نفسها، اتصلت بالرقم الأول، فالثاني، فالثالث، فإذا هي على الخط، دعوتها لمراجعتي، وجاءتني، وتكررت اللقاءات.

❖

في المطعم، ويدي فوق يدها، قلت لها: "عندي شقة واسعة في العرقوب، وشقة أخرى أجرتها جيدة، وأنا رئيس دائرة، وراتبي جيد، لا ضرورة للسفر"، قالت لي:"أريد تحقيق ذاتي، أريد أن يكون لي دخلي وراتبي"، عرضت عليها التنازل لها عن أجرة الشقة، أبت، إلا أن آخذ استيداعاً من الوظيفة، وأذهب معها إلى المملكة، لنعيش معاً أربع سنوات، ثم أعود إلى الوظيفة، كدتُ أوافق، هي في الثانية والعشرين، وأنا في

الخامسة والثلاثين، جننت بها، تفجَّرت كلّ قواي، عشقتُها، عشقتُ حركتها غنجها سمرتها، رأيت فيها السفر والأحلام والحب، وكدت أوافق على السفر معها.

أصرّت على موقفها، قالت:"هي فرصة العمر، الرواتب هناك مغرية، قد تجد فرصة عمل، تعوّضك عن المعمل كله، ونعيش بعد ذلك كالملوك"، شاورت أحد زملائي، قال لي: "أحد ملوك إنكلترة تخلّى عن العرش من أجل امرأة يحبّها". الملوك إذن يعشقون ويحبون ويتخلون عن الملك من أجل الحب، ونحن نتخلى عن الحب لنعيش مثل الملوك، وهل سنعيش حقيقة مثل الملوك إذا أمضينا أربع سنين من الغربة في المملكة؟ صدقيني لا يمكن أن نعيش حتى كالمدير.

اعتذرت إلى السُّميراء، فسافرتْ إلى المملكة بعد أن حظيت بزميل لها متخرج معها في كلية العلوم، ووعدته بتأمين عقد عمل، زارتني مودِّعةً بصحبته، قالت وهي تقدِّمني للشاب الذي كان بصحبتها:"الأستاذ له الفضل في تسليمي رسالة القبول على التعاقد، لا أنسى فضله"، أحسست أنها تريد الانتقام منِّي، باركت لهما، تمنّيتُ لهما السعادة، تمنيت عليها أن تزورني مع زوجها إذا جاءت في عطلة الصيف، ولم تخيب ظني، زارتني مع زوجها، حملت لي هدية جلابية بيضاء من المملكة، عليها علامة الدفة، أفخر أنواع الجلابيات، وحبّي كان من أفخر أنواع الحب، رأيت الجلابية كالكفن لفَّتْ فيه قصة حب، ما تزال الجلابية في الخزانة، مطوية إلى اليوم، لا أحب الجلابية، لا البيضاء ولا السوداء، بالأحرى لا أحب أن أرتديها أنا، لا أكرهها، ولا أكره من يرتديها، جاري هشام يزورني دائماً بجلابيته البيضاء، ولا سيما في يوم الجمعة، فأستقبله، وأُسَرُّ به، أرتاح إليه، أسعد بحديثه، قدمتْ لي أيضاً صندوقاً فيه تمر من المملكة فاخر، محشُوٌّ باللوز، ثم افتقدتها بعد ذلك، ما رأيتها، ضاعت في حلب، أو في المملكة، لا أعرف، لا شك في أنها عادت إلى حلب، ولكن ما رأيتها أبداً، بقيت أهجس بها عدة سنين، في كل مرة أقف فيها بسيارتي عند إشارة المرور أتملّى العابرين في الشارع أمام السيارة، أتمنى أن أراها بينهم، أتمنى للإشارة الحمراء أن تطول، يسرّني جداً أن أتأمل العابرين، وتزعجني جداً أبواق السيارات خلفي وهي تنطلق فور إضاءة اللون الأخضر، مرة عبرت أمامي سيدة تجر طفلاً في الرابعة، شعرها شعر السُّمَيْراء، خطواتها هي خطواتها، حركتها هي حركتها، ناديتُ:"نجوة"، وها أنذا أبوح باسمها، ولكنها لم تلتفت، أضعتها. كنت أحب أن أكتب اسمها "نجوة" بالتاء، مرة كنا في مطعم نتناول الغداء، فخططت اسمها على المائدة:""نجوة"، دهشت، سألت:"لماذا بالتاء؟ اسمي نجوى"، قلت لها:"هكذا، أودّ أن أصوغ اسمك من جديد، أن أخلقه خلقاً آخر، أن يكون الاسم الذي أصنعه أنا، فأمنحك إياه"، ثم أضفت:"النجوة هي الأرض المرتفعة، وهي النجاة، وأنت نجوتي ونجاتي، أنا أسكن في العرقوب، وهو

الهضبة العالية، ولكن أنت الأعلى، أنت النجوة"، وما آلمني أنها وهي تودِّعني قالت هامسة: "بالمناسبة، أنا سأعمل في القصيم، في نجد، ونجد هي الأرض المرتفعة". كأنها تقول لي:"أنا لن أذهب إلى هضبة العرقوب، أنا سأذهب إلى هضبة نجد". كنت أنا حقيقة عاشقاً، وكانت هي تفكِّر فقط في زوج يصحبها إلى المملكة من أجل المال. لعلها على صواب، ولعلي على خطأ. إلى الآن ما أزال أشتهيها، وأحبّها، أنا نادم على شيء واحد فقط، لم أقبلها، لم أضمها إليّ، لم أعتصرها، في شهرين فقط التقينا أكثر من عشرين مرة، في كل يوم تقريباً نلتقي، الوقت يدهمنا، علينا أن نقرّر، أنا نادم، كنت أتصورها زوجة، وأقول:"هي حبي"، أردت صونها واحترامها، كانت فيروز تغني لنا ونحن في السيارة أو في المطعم أو المقصف، حيث ذهبنا كانت فيروز تغني لنا:

سألتك حبيبي
لوين رايحين
خلّينا خلّينا
وتسبقنا سنين
إذا كنّا ع طول
التقيناع طول
وليش منتلفّت خايفين
أنا كلّ ما بشوفك
كأنّي بشوفك
لأول مرة حبيبي
أنا كل ما تودّعنا
كأنّا تودّعنا
لآخر مرة حبيبي
قللي احكيلي
نحنا مين
وليش منتلفّت خايفين
ومن مين خايفين ؟
موعدنا بكرى
وشو تأخر بكرى
قولك مش جاي حبيبي
عم بشوفك بالساعة
بتكّات الساعة

من المدى

جايى حبيبى

حقيقة كنا خائفين من كل شيء، من المدير العام للبريد، من مدير المعمل هشام، مدير معمل أبي، من الناس، من الناس، كنا خائفين من الزمن، علينا أن نقرر السفر معاً أو الفراق.

بحث لأحد الأصدقاء، فقال لي:"هذا هو الخطأ القاتل، الجسد هو كل شيء، لا حب من غير جسد، لو قبلتها لكان كل شيء اختلف"، الكلام صحيح، الكلام غير صحيح، صدق أو لاتصدق، تماماً مثل النارجيلة، كما قال صديقي هشام، ولذلك قال الفلاسفة الأوائل بالعناصر الأربعة: الماء والنار والتراب والهواء. وعدت إلى قراري الأول لا زواج إلى الأبد، ولا حب. وعكفت على اسبينوزا، وماركس، وفرويد، وسارتر، وتركت المعمل والدعاوى، وانصرفت إلى متعة الفكر.

أحياناً أتخيلها وقد عادت، وأتخيل زوجها قد أصبح مدير التربية، وزير التعليم، أتخيله قد سلبني زوجتي، حين زارتني بصحبته لتودّعني لم تذكر اسمه، قالت: "زميل لي متخرج معي في الدورة نفسها في كلية العلوم، سنسافر معاً إلى القصيم، في نجد". حتى صورته نسيتها، أتخيله مثل هشام، المدير الذي سلبني المعمل. أحياناً أتخيل أنها مبعوثة من طرف المدير، السيد هشام، أقول: "هو الذي أرسلها إليّ، كي تشقى بها حياتي"، ولكن أنا من اتصل بها، ودعاها لاستلام الرسالة المسجلة، أحياناً أتخيل زوجها واحداً من أقارب المدير، أحس أن الخيوط كلها بيد المدير، وأنه يحرّكني مثل دمية. أحس أني قمر تابع واقع في جاذبية المدير، أطوف حوله، أدور في فلكه، وكل ما في حياتي هو بتأثير منه، في بعض الأحيان أتوهّم أنني سأتعرض للاغتيال فأسخر من نفسي.

أحد أصدقائي قال لي:"أنت لم تحببها، ولم تُرِدِ الزواجَ منها، أنت أردت أن تشغل نفسك بها، أردت أن تعيش قصة حب، أن تصنعَ مشكلة في حياتك تنسيك إلى حين مشكلة المدير والمعمل، في كثير من الأحيان يختار الإنسان أمراً صعباً ليحسّ بمتعة المغامرة، وأحياناً يختار بشكل غير واع أمراً مستحيلاً لا يقدر عليه ليعيش مأساة، لأن في طبع الإنسان الميل إلى المأساة، وليبرّر بعد ذلك خيبته وإخفاقه"، أنكرت عليه ذلك، وعاتبته، فقال:"أنت تعرف أنها سوف تتعاقد للعمل في المملكة، أي ستسافر، وأنت تعرف أنه لا يمكنك ترك جدتك وحدها، وترك المعمل، والتخلي عن شكاواك والدعاوى، وأنت تعرف أنك لن تسافر للعمل، فوضعك المالي جيد، عندك شقة تعيش فيها، وشقة أخرى تعيش من أجرتها، وعندك عملك، ووظيفتك مرموقة، وراتبك جيد،

هذا ليس حباً، أنت بصورة لا واعية اخترت فتاة لا يمكن أن تتزوجها، كي تصنع في حياتك مشكلة".

هل اختارت حقاً بحرية؟ وأي حرية تلك؟لقد اختارت ضمن شرط المال، والسفر، والزواج، لم يكن اختيارها حراً. حتى الشاب الذي اختارته كان اختيارها له ضمن شرط، فهو زميل لها في الدراسة الجامعية، واختارته لأجل السفر معها، ولأنه قبل السفر معها، ولم يكن اختيارها له هو في حد ذاته، لأنه هو، وإنما لأجل السفر.

نحن لا نختار.

٩. ثوب زفافها الأبيض

هناك، ما أزال أحتفظ بثوب زفافها الأبيض، في الخزانة، لم يره أحد، ثوب الزفاف الأبيض الذي لم تلبسه، أوصيت به أحد أصدقائي في باريس، وصلني بالطائرة، أبيض أبيض، كالحمامة البيضاء، مرة واحدة فقط أخرجته، وبسطته على السرير، بعد وفاتها، وأشعلت شمعة بيضاء، وقعدت أمامه، إلى أن شعشع نور الفجر، فتحرك الثوب، وسمعت صوتها، "نم، حبيبي، نم"، ونمت. مرة واحدة زارتني روحها، ما حاولت ثانية، خشيت أن أخفق في استحضار روحها، وضعته في الخزانة، إلى جانب ثيابي، كل صباح أراه، كل مساء أراه، أتنسّم شذاه، أتنسّم عطرها الخاص المميز، وهي التي ما ارتدته أبداً، بل كان شرط زواجها مني ألا ترتديه، ورفضت أن أقدِّمه بعد ذلك هدية لابنتها في يوم زفافها.

عشر سنوات عشتها معها، بل عشر سنوات وتسعة أشهر وخمسة أيام، وعشتُ معها فوقها من قبل عشر سنوات. بعد ذلك الحب لنجوة السميراء بخمس سنوات، وقد بلغت الأربعين، وأنا الآن في الخامسة والستين، دخلتْ عليَّ في المكتب، وأنا رئيس الدائرة، قدمتْ نفسَها، بكلّ ثقة:"أنا الموظفة الجديدة، خرّيجة كلية الحقوق، معاونة في مكتبك، أنا...."، لا أريد أن أبوح باسمها أيضاً، هل أسميها: فريدة؟، هو اسم تقليدي جداً، ولا يصلح لقصة حب أو رواية، ولكن أنا لا أؤلف رواية، أنا أحكي قصة حياة، هي فريدة حقاً، في حياتها وفي شخصيتها.

❖

لم أُسَرّ لحضورها، بل ضايقني، كنت وحدي في المكتب، لا أريد معاوناً ولا معاونة، فوجئت بالقرار، لم أُستَشَرْ فيه، ولكن هل ثمة مجال للمشاورة؟ هكذا شاء المدير، وإذا شاء فعل، وإذا فعل، فلا بد من القبول والرضا. رحبتُ بها، ثم كانت طاولتها إلى اليمين من طاولتي، على بعد ثلاثة أمتار. طلبت لها فنجان قهوة، دار بيننا حديث عادي جداً عن العمل، كانت موظفة في شركة الكيماويات قبل انتقالها إلى

مؤسسة البريد، أمضت هناك خمسة أعوام، وهي الآن في نحو الثلاثين، تزوجت مباشرة بعد تخرجها في الثانية والعشرين، عندها ابنة عمرها ثماني سنوات.

❖

من المؤلم أن نختصر عمراً من الشقاء والسعادة، من الصحة والمرض، من الفقر والغنى، من اللذة والألم، في كلمات، كأننا نختصر الكون كله في نارجيلة: ماء ونار، وتراب وهواء؟

❖

بعد نحو شهر تقريباً وعند نهاية دوامها زارها زوجها، ممشوق القوام، ناحل، أنيق، شديد التهذيب، طلبت لهما القهوة، تبادلنا أحاديث سريعة، ثم انصرفت بصحبته، زوجها محام، في عمرها تقريباً.

لم تكن لتتأخر يوماً عن الدوام، لم تكن لتتأخر في إنجاز أي عمل، هادئة، تُعْنَى بمظهرِها، من غير إفراط، ملأت المكتب، بعد استئذاني، بالزهور ونباتات الزينة، أحضرت ملاءتين جميلتين جداً وأنيقتين، طلبت مني أن أختار إحداهما، فأبيت إلا أن تختارَ هي، فرشتْ بهما سطح طاولتي وسطح طاولتها، أهدتني لوازم مكتبية: حاملة أقلام، وعلبة وريقات، وساعة طاولة صغيرة، وقاعدة خشبية تحمل لوحة خشبية مزخرفة نقشت عليها اسمي.

دعتني إلى منزلها، سررت بلقاء زوجها وابنتها، ابنتها جميلة، نسخة مصغرة عنها، ذكية جداً، هي في التاسعة من عمرها، جاءت الزيارة بعد سنة تقريباً من بدء عملها معي في مكتب رئاسة الديوان، أي بعد سنة من توطُّد الصلة والتعارف.

تطورتْ هذه الصلة معها ومع زوجها وابنتها، تكررت الزيارات، وتعمقت، دعوتهم أكثر من مرة إلى منزلي، ابتهجت ابنتُها بالحمامات البيض، ووددت إهداءها زوجين، ولكن الأم اعتذرت، إذ لا يمكن للحمام أن يعيش في شقة مغلقة.

مر عمر، مرت عشر سنوات، ليلى ابنتها في المرحلة الثانوية، عليها أن تتقدم لامتحان الشهادة. فجأة بدأت نوال تتأخر عن العمل، وهأنذا أبوح باسمها، كانت تكتفي بفنجان واحد من القهوة في الصباح، وفنجان قبل الانصراف بساعتين، فأخذت تشرب في اليوم خمسة فناجين، أو أكثر، تأتيها هواتف كثيرة، تعتذر، تطلب مني الغياب نصف ساعة فقط، تغيب نصف ساعة بالضبط، ثم ترجع، بدأت تتأخر، غابت يوماً، طلبت اقتطاعه من إجازاتها السنوية، كل شيء غير طبيعي. مرت على هذه الحالة ثلاثة أشهر، نال منها النحول، اصفرّ لونها أهملتْ مظهرَها، تغاضيتُ عن تأخرها وغيابها. فسّرْتُ الأمر على أنه مساعدتُها لابنتها على التحضير لامتحان الشهادة الثانوية.

أحسست أنها تريد أن تعترف بشي، سألتها، فانفجرت باكية:"زوجي في المستشفى منذ ثلاثة أشهر"، وقبل أن أسألها عن مرضه أضافت وهي تجهش في البكاء:"سرطان في الدم"، وأسرعت بها إلى المستشفى. طلبت لها من المدير إجازة لأسبوعين، بعد شهر توفي زوجها، بعد انتهاء ابنتها من امتحان الشهادة الثانوية بأسبوع واحد. بعد أسبوعين أعلنت النتائج، مجموعها عال، يؤهلها للانتساب إلى كلية الطب، وكان لها ما أرادت، وبدأت تحلم بالاختصاص في علاج السرطان.

❖

مرة أخرى، من المؤلم أن نختصر حياة كاملة في بضعة أسطر. نعيش عمراً ساعة بساعة دقيقة بدقيقة، نمرض، نتألم، نسعد، نستمتع، ثم نختصر ذلك كله في أسطر، وهو يحتاج إلى مجلدات.

❖

تعرَّفْتُ إلى والدها، إلى إخوتها الثلاثة. أسرة راقية جداً، ومثقفة، والدها بائع مفروشات منزلية، متقدم في العمر، ورث المهنة عنه أحد أولاده، الولد الثاني صيدلي، الولد الثالث مهندس مدني. هي البنت الوحيدة. هي في الأربعين، أو تجاوزتها، وأنا في الخمسين، أو تجاوزتها قليلاً. بعد انقضاء أشهر العدة، دعاني والدها إلى منزله. حول مائدة العشاء تحلّقنا، إخوتها الثلاثة، أبوها، هي وليلى، ابنتها. أول مرة أراها في ثوب الحداد الأسود، كساها السواد براءة ونقاء وجمالا. كأنني أراها أول مرة.

❖

كانت قد تقدمت بطلب إجازة مدة أربعة اشهر، كي تمضي أشهر العدة في البيت. الشرع لا يقضي بذلك، الشرع يتيح لها أن تعمل، وأن تخرج إلى السوق، ولكنها هكذا شاءت. الأب يتكلّم:

- ابنتي نوال هي وحيدتي، وأنا أرعاها بالعين والقلب، وعندها إخوة ثلاثة، لا يتخلى أحد منهم عنها، ولكن نحن عندنا أمانة، يجب أن نبلغك إياها، سامي، زوج نوال، أوصى وهو على فراش الموت، أن تكون في رعايتك، وفي حمايتك، وأنت رئيس الدائرة، أنت مديرها المباشر، بل، قبل أن يلفظ أنفاسه، أوصاها مباشرة.

نوال تنهض مسرعة، وهي تجهش في البكاء، الأب يكمل كلامه، والدموع تترقرق في عينيه:

- أوصى سامي أن تكونَ زوجاً لها، من أجلها، من أجل ليلى ابنتها، المرأة يجب أن تعيش مع رجل، نوال ابنتي لا تفكر في الزواج، ولكن أنا نصحت لها، قلت لها: يجب أن تعيشي مع هذا الرجل في بيت واحد، مثلما أنت تعيشين معه في العمل، في مكتب واحد، هو قدرُك.

يصمت، ثم يعلق:

- اعذرني يا ولدي، ما أقوله لك غير متوقع، ولا مألوف في مجتمعنا، فالأب لا يعرض ابنته على رجل ليتزوجها، ولكن نوال حدثتني من قبل عنك، وأنا أعرف كل شيء، نوال ستنسيك مدير المعمل، والمعمل، يجب أن تكون لك زوجة يا ولدي.

❖

وهكذا تزوجتُ نوال. عشتُ معها عشر سنوات، هي العمر الحق، أنستني حقيقة كل شيء، عشتُها كلّها معها في شقتها، كنت أزور شقتي في الأسبوع مرة، أصطحبها معي، ترشّ الذرة البيضاء للحمامات البيض، تقطف الورد، تسقي الحديقة، نتناول فنجان قهوة، ونرجع إلى شقتها. أنستني المدير والمعمل، أنستني أمي وأبي وجدتي. جميل جداً أن تعيش لشيء واحد، تنذر حياتك كلها له، نوال كانت حياتي كلها بها لها معها. تخرّجَت ابنتها، وسافرت إلى أمريكة للتخصص في علاج السرطان، وتزوجتْ هناك من شاب من سورية، يتخصص مثلها في أمراض الدم.

❖

ثم مرت بعد ذلك دلال في حياتي، بعثت الحياة في حياتي، تسعة أشهر لا أكثر، ثم غابت، مثلما تغيب الظلال.

عشر سنوات عشتُها مع نوال. رعاية، وعناية، هي لي كالأم، وأنا لها كالأب، عطف وحنان ورعاية. هي لي الزوجة، وأنا لها الزوج، هي لباس لي وأنا لباس لها، كما قال المولى تعالى. لا أستطيع أن أتكلم ولا أن أبوح، أحتفظ لنفسي بما هو لنفسي.

❖

ولكن، أحياناً، بل في أحايين، نكون معاً في أوج الانصهار، أنفصل عنها، أسرع إلى الحمام، أقف تحت الماء البارد، ساعة بل ساعتين، لا أعرف كم أقف تحت الماء البارد. وتسرع، تجلب لي مناشف معطرة، تناولني كأس شاي ساخن، تضمني إلى صدرها، تهمس لي:

- لاتقلق حبيبي، أنا معك.

لم أكن لأصارحها. تقفز إلى ذهني صورته، هيئته، يدخل في شراييني، يملأ مخيلتي، فأنطفئ. لا، ليس مدير المعمل، هشام، هو مدير آخر. قصير، بدين، ممتلئ، مدوّر، رأسه كبير، مدوّر مثل جسمه، كأنه كرة شوك، كأنه كرة قدم، عيناه مدورتان، نظرته حادة شرسة عدوانية، كلما رأيته حسبته يخاصمك، في وجهه انقباض وانحباس، كأنه يتذوق الحامض دائماً، كأنه على وشك التقيُّؤ، كزّ النفس، فمه واسع، شفتاه غليظتان، في زاويتي فمه بقايا من قهوة، وبين أصابعه آثار من سكائر لا تنطفئ ولا تنتهي، على عينيه نظارة طبية سوداء، ما يفتأ بين لحظة

وأخرى يثبّتها على أنفه بدفعة من سبابته. يتصل بي مرة أو مرتين في الأسبوع، يدعوني إلى مكتبه، قبل نهاية الدوام، يعدّني صديقه الأوحد في مؤسسة البريد، "تفضل إلى مكتبي"، ولا بد من الاستجابة.

ومن نكد الدنيا على المرء أن يرى عدواً له ما من صداقته بدُّ

أدخل مكتبه، أدخل في سحابة من دخان السكائر، يترك طاولته، ويقعد إلى جواري، وأمامنا على المنضدة الصغيرة مغلفات وأوراق وكتب وجرائد ورسائل ومزهريات صغيرة وهدايا، أعرف أنه سيحدثني عنها بالتفصيل بعد قليل، وأعرف أنه ما دعاني من أجل الشعر، إنما من أجل هذه اللُّقى والتحف والهدايا، وإلى جوارها كلها وعند زاوية المنضدة دفتر أزرق صغير. يحضر الآذن لنا القهوة، وقبل أن يخرج، يقول له:

ـ قل للسكرتيرة أنا في اجتماع، لا هاتف ولا مراجعين.

يشعل سيكارته، يحمل الدفتر الأزرق الصغير، يقول لي:

ـ اسمع آخر ما كتبت.

يأخذ في قراءة أشعاره، هو يثق في ذوقي، يعدّني مثقفاً، أقول له:

ـ هات الدفتر، سأقرأ في مكتبي، قد يراجعني أحد المواطنين.

أنا أحاول التملّص منه، والتخلص من غرفته ودخان سيكارته، بل من سحابات الدخان التي تملأ غرفته، ولكنه يصرّ:

ـ لا تصح قراءة الشعر بالعينين قراءة صامتة، الشعر لا يقرأ، الشعر يُرَتّل، يُلْقَى، يُنْشَد، يُغَنّى، الشعر يُسمع، هيا اسمعني.

ويأخذ في القراءة ونفث دخان السيكارة، وارتشاف القهوة، وهو لا يفتأ بين لحظة وأخرى يدفع بسبابته نظارته السوداء ليثبّتها على أنفه. ليس بشعر، مجرد نظم، بل سجع، لغة عادية جداً، لا خيال ولاعاطفة ولا روح ولا تألّق ولا صورة. ثم يُلقي الدفتر، ويأخذ في الكلام، وهو ينفث دخان سيكارته، ويثبت نظارته الطبية السوداء:

ـ كما قلت لك، أنت حتى الآن لا تقتنع، أنت تدافع عن المواطنين، وعن الحرية، لعلك الآن تقتنع، على كل حال ليس من الضروري أن تقتنع، فقط اطّلع، انظر بعينيك، لتعرف بماذا يقوم بعض المواطنين، وأنت تسمّيهم مواطنين، وأنا أقول غوغاء جهلة، ولا أقول عملاء مخرّبون.

ينفث دخان سيكارته، يرشف القهوة، يثبت نظارته، ثم يتابع:

ـ انظر إلى هذه الصفحة في هذه الجريدة، انظر إلى هذه الخاطرة، هي مجرد عمود في جريدة، ولكن فيها دمار للبلد، لا تقل لي هي نسخة واحدة، تصل إلى مواطن واحد، نحن حريصون على كل مواطن، كل فرد هو الوطن كله، وخذ هذه المجلة،

من يتوقّع؟ هي مجلة الأزياء والفنون، ولكن هنا في هذه الزاوية خبر كاذب، قد يُحْدِث بلبلة في البلد، نحن لا نريد بلابل ولا عصافير ولا طيور، نحن سماؤنا محمية ومحصّنة، وانظر إلى هذا الكتاب، هو عن تاريخ إيطاليا، عن صعود موسوليني وسقوطه، كتاب مترجم ومطبوع في دولة عربية، ومرسل بالبريد إلى شخص هنا، هو مواطن عادي، لا نعرف عنه أي شيء، ولكن لماذا يُرْسَل إليه هذا الكتاب؟ وفيه كشفٌ عن أساليب الصعود وطرق السقوط أو الإسقاط؟ عنوانه وحده خطير: "سقوط إمبراطورية"، مرة أخرى لا تقل لي: "هو نسخة واحدة لمواطن واحد"، نحن أولاً نحرص على عقل هذا المواطن، وهو جزء من هذا الوطن، وانظر إلى هذا الظرف، افتحه، تفضل افتحه بنفسك.

ويناولني الظرف، يشعل سيكارة جديدة، يرشف قهوته، يثبِّتْ نظارته السوداء. أفتح الظرف، وإذا فيه مجلة أطفال، يقول لي:

- أرجوك، قلِّب صفحاتها، انظر في داخلها.

يتابع كلامه والسيكارة بين أصابعه:

- هل رأيت؟ لا تدافع عنه، لا تقل لي هذا عامل فقير طيب وبسيط يعمل في الخليج، أرسل لولده في الوطن مجلة أطفال ووضع فيها مئة دولار، هذه عملية تهريب للعملة، حتى ولو كانت بقيمة دولار واحد، القانون هو القانون، ونحن أسياد القانون، علينا أن نحميه، والآن سوف تُدْهَش أكثر، احمل تلك المزهرية الصغيرة، المرسلة في طرد بريدي من أب إلى ولده بمناسبة عيد الميلاد، خذها، احملها، قلّبها بين أصابعك، لا شيء فيها، ولكن نحن بالأشعة السينية كشفنا عن وجود ثلاث ليرات ذهبية في عقبها، مغطاة بمادة طينية من نفس مادة المزهرية، وهي طبعاً داخلة إلى الوطن وليست خارجة منه، نحن الأمور عندنا كلها مضبوطة، لا يمكن إخراج أي شيء من هذا النوع، ولكن لا يمكن السماح أيضاً بإدخال مثل هذه الأمور، أنا أعرف، أنت توافقني على منع إدخال مثل هذه الأمور الأخيرة، من عملة أجنبية أو ذهب، وأعرف أنك لا توافقني على منع كتاب أو جريدة أو مجلة، أنت تعتبر هذا مصادرة للحرية، لا، هذا حماية للوطن.

يرشف آخر ما تبقّى في الفنجان، يشعل سيكارة جديدة، ثم يسأل:

- ما رأيك في سماع قصيدة ثانية؟ أوجعت رأسك بالممنوعات، والمهربات، سوف أسليك بهذه الأبيات.

وينظر في ساعة يده ثم يقول:

- عندنا خمس دقائق قبل انتهاء الدوام، سأسمعك هذه القصيدة.

ويأخذ في قراءة القصيدة، يقطع القراءة، ليقول لي:

ـ أمامك العناوين المرسلة إليها هذه المواد كلها، انظر فيها، إذا كان أحد من أصحابها قريباً لك أو هو صديق فخذ المادة المصادرة وسلمه إياها.

أعتذر إليه، مؤكداً أنني لا أرغب في ذلك، حتى لو كان أحد أصحابها أخي لما استلمت شيئاً منها. يتابع نفث الدخان وتثبيت النظارة السوداء والكلام، يقول:

ـ على كل حال، نحن سوف نستدعي أصحابها، نبلغهم أن يتصلوا بالمرسلين وأن يطلبوا منهم عدم تكرار الإرسال، والأشياء الثمينة، أو ذات القيمة سنسلمهم إياها، ونأخذ منهم تعهداً خطياً بعدم تكرار الظاهرة، أما الصحف والمجلات والجرائد فنتلفها، هذا نظام عالمي، تأخذ به كل دول العالم، كل دولة تريد حماية مواطنيها، نحن مع الحرية، ولكن للحرية حدود وقوانين وأنظمة وقواعد وضوابط، ليست الحرية اختراقاً ولا انفلاتاً ولا فوضى، نحن نقوم بعملية تنقية، هل يمكن شرب الماء العكر؟ لا بد من تنقيته.

ينهض، يتناول كتاباً من المكتبة، يدفع به إليّ، وهو يقول:

ـ خذ هذا الكتاب، اقرأه، احتفظ به في مكتبتك، ولكن لا تُعِرْه إلى أحد.

نظرت فيه، فإذا هو عن سيف الدولة الحمداني، سألته:

ـ ما مشكلته أيضاً؟

يعود إلى مقعده بجواري، ينفث دخان سيكارته، يثبِّت نظارته السوداء، يقول:

ـ كتاب تاريخي، منصف، وعلمي، وموثّق، يتحدث عن مآثر سيف الدولة الحمداني، وبطولاته، ولكن، فيه فصل عن هزيمته مرتين أوثلاث مرات ودخول الروم حلب وتدميرها، وفصل عن ظلمه واستيلائه على الأموال من أجل التصدي للروم ومشاركته الورثة في الميراث.

ـ هذه حقائق ذكرها مؤرخو عصره، وفي مقدمتهم مؤرخه ابن شداد، والكتاب كما قلت تاريخي وعلمي وموثق ومنصف.

ـ هي حقائق، نعم، ولكن ليس من الضروري إشاعتها بين الناس، لا تنس سيف الدولة ابن مدينتنا حلب، وهو رمز من رموز التاريخ، ونحن أطلقنا اسمه على حي الحمْدانية، هذا الحي الحضاري الجديد، هو مدينة وليس مجرد حي، ونحن أقمنا له تمثالاً، ووضعناه في ساحة المشارقة، إحدى الساحات الرئيسة في مدخل حلب، وأقمنا تمثالاً آخر لابن عمه: الشاعر العظيم أبو فراس الحمداني، ووضعناه في أكبر حديقة عامة تتوسّط المدينة، يرتادها أهل حلب كلهم، وأنا وأنت من أبناء هذه المدينة، ألا يحق لنا أن نغار على رمز من رموزنا؟ نحن نريد أن تبقى صورته في أذهان الشعب مثالية، نحن نريد أن يبقى الشعور السائد نحو كل رمز من الرموز شعور الحب والإعجاب، لا نريد زعزعة هذا الشعور، لا يمكن قبول مثل هذا التشكيك في مثل

هذه الشخصية، حتى لو كان الكتاب بحثاً علمياً، هذا الكتاب يمكن أن يبقى على الرف، للمختصين الباحثين، لا نريد له الانتشار.

❖

أعرف، أنت تريد قلوباً تخفق، لا تريد عقولاً تفكر، أنت ما تزال تفسر التاريخ على أنه من صنع أفراد عباقرة، لا بد من تمجيدهم، بل عبادتهم، لا تريد شعوباً لها دور وفعل، لا أستطيع أن أصارحك، لا أستطيع أن أناقشك، لا يمكن أن تقبل الحوار، بل لا جدوى من الحوار، أنت تقعد إلى جواري، ولكن أنا ضيفك، في مكتبك، وتلك هي منضدتك بطولها وعرضها، ولا أتخيلك إلا قاعداً وراءها، بل أنت حقيقة وراءها، ولو كنتَ إلى جواري، وأنت ما دعوتني إلا لتقول لي: "أنا هنا".

❖

ـ أعرف، لا تقل لي هي نسخة واحدة، نعم، هي نسخة واحدة، ولكن يمكن تداولها، نسخة واحدة نادرة تجذب الأنظار وتؤثر أكثر من ألف نسخة مبذولة، والقضية بعد ذلك قضية مبدأ، نحن نتمسك بالمبدأ، نحن ندافع عن القيم، نحفظها.

❖

الكل يتحدث عن القيم، الكل يتمسك بالقيم، ولكن في النهاية ما هي القيم؟ من العدل عند الإغريق القدماء أن يكون الحكم للنبلاء، والدولة تنهض على أكتاف العبيد، ومن العدل في النظام الاشتراكي أن يكون الحكم للفقراء من عمال وفلاحين، من الجمال الانسجام والتوازن والتناظر والتناسق في المسافات والألوان والأبعاد، ومن الجمال محاكاة الواقع بجزئياته وتفاصيله، وإذا اللوحة هي الواقع الحي يتحرك، كما في الفن عند الإغريق والرومان، ومن الجمال خلاف ذلك كله في العصر الحديث، كما في لوحات سلفادور دالي وبيكاسو، لم يكن من اللائق أن تأكل في الشارع، اليوم أصبح من المألوف جداً أن تقضم الصندويشة في الشارع، بل يباهي الشباب بتناولهم الصندويشات والكولا في الشوارع وعلى الأرصفة، ولم يكن من اللائق أنت ترتدي الصبية تنورة خضراء وقميصاً أصفر، فلابد من تدرُّج الألوان وتناسب بعضها مع بعض، أصبح اليوم التنافر هو معيار الجمال، حتى في العمارة، أصبح التنافر لا التناظر هو المعيار. صدق أفلاطون عندما رأى أننا أشبه بقوم مقيّدين بالأصفاد، يقعدون في مدخل مغارة، وجوههم إلى داخلها، ووراءهم يمرّ قوم يحملون تماثيل، تعبر عن الجمال والحق والخير، ومن وراء التماثيل تسطع الشمس، القاعدون في مدخل المغارة لا يرون التماثيل، إنما يرون ظلالها تسقط على جدار المغارة في العمق، فيظنون أنهم عرفوا القيم.

❖

دلال مرت في حياتي كالظلال، لم أعرف منها سوى ظل واحد.

❖

لا أنسى يوم توفي جارنا في العمارة المقابلة، المذياع أمامي على الطاولة، يرسل أغنياته بصوت هادئ، كنت لا أستطيع الدراسة إلا والمذياع أمامي على الطاولة، ويدخل أبي، كنت في المرحلة الثانوية، ويسأل:"ما هذا يا ولدي؟"، ثم يضيف:"جارنا مات، وأهله ما يزالون يقيمون التعزية، لا يا ولدي، أغلق المذياع"، وأتكلم:"ولكن يا أبي، الصوت هادئ، ولا أحد يسمعني"، ويعلق:" يا ولدي المشكلة ليست في سماعهم أو عدم سماعهم، المشكلة في أن جارنا بالأمس مات، الحزن قيمة ياولدي، يجب أن نراعي مشاعر الجيران، يجب أن نشاركهم الحزن"، تذمرت، ازدادت نقمتي على والدي، قلت هذه هي عقلية الإقطاع، هذه هي قيم الرأسمالية، كنت مشبعاً بالأفكار الثورية التقدمية. ولا أنسى، قبل شهر فقط، توفي جارٌ لنا هنا في العرقوب، ابنه صاحب محل لبيع الأدوات المنزلية، مررت في اليوم الثاني لوفاة الأب أمام المحل، فإذا ابنه في المحل، يبيع ويشتري، وأمامه التلفاز يتابع فيه مسلسلاً، وفي يده جهاز التحكم. وأراجع نفسي، فأجد كل ما فكرت فيه هو من العادات والتقاليد والظواهر الاجتماعية، ثم أفكر، فأسأل: أين القيم إذن؟ بل ما هي القيم؟. يا إلهي، لعلي أنا على خطأ.

❖

أنهض مودعاً، يسير معي إلى باب غرفته الطويلة، وعند الباب يقول لي، وهو يثبت نظارته السوداء على أنفه بدفعة من سبابته:

ـ سأرشحك للعمل في مكتب الضبط، لمراقبة مثل هذه التسريبات، لن تقوم أنت بالمتابعة، ستكون أنت رئيس المكتب، عندك عمال أذكياء نشيطون، أعرف أنك لا تتفق معي كثيراً، لكن عندما تكون مسؤولاً عن تطبيق القانون سيكون موقفك مختلفاً، أنت لم تجرِّب تطبيق القانون، هو مسؤولية وأمانة، لذلك سأرشحك.

ألحّ عليه معتذراً، أرجوه ألا يرشحني لهذا العمل.

❖

ثم هو دلّ عليّ بعد ذلك دلال، فكرت في ترشيحي مستشاراً، براتب جيد، وأنا في شقتي، فاعتذرت. عندي ما يكفيني.

❖

تطبيق القانون يا صديقي لم يعد مسؤولية ولا أمانة، أصبح لذة يمارسها من بيده تطبيق القانون، يشعر في تطبيقها بقوته ويحقق بها ذاته، يتمترس خلف القانون بدعوى تطبيقه، والقانون بعد ذلك يضعه القوي، المنتصر، المغتصب، يعدّله أو يفسِّره كما يشاء، أو يخرقه.

❖

ما أزال في الحمام، تحت الماء البارد، ينصبُّ على رأسي، على سائر جسمي، وصورته ما تزال تملأ مخيلتي. هو معاون المدير، مدير مؤسسة البريد. اسمه أكرم، ثم أصبح الحاج أكرم. كم أود لو أسميه "هشام"، لن أرتاح إلا إذا سميته "هشام" هو هشام الثالث، لا هو هشام الثاني، هشام الثالث هو جاري الطيب.

❖

يوم زواجي من نوال أرسل إلي المنزل باقة زهر، ومنحنا ثلاثة أيام إجازة، بالإضافة إلى إجازة الزواج المستحقة، وفي أول يوم من أيام دوامنا معاً نزل إلى مكتبنا، يحمل بنفسه باقة ورد. قال ممازحاً:

- من يوم زواجكم زادت الطرود والرسائل والبرقيات، ولاسيما الطرود والرسائل المصادرة.

قرأ ثلاثة أبيات تهنئة، وقدمهما إليّ على بطاقة مذهبة. لم أحتفظ بها. ويوم وفاتها زارني في البيت وقدّم لي التعزية.

أحيل على التقاعد بعدي بثلاث سنوات، قبل عامين فقط، قبل سكن هشام في الشقة، اتصل بي بالهاتف، وأخبرني أنه ذاهب مع زوجته إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وبعد عودته من الحج دعاني لزيارته، لم أذهب، ثم اتصل بي بعد مدة، أخبرني أنه يؤدي دائماً صلاة الجمعة في الجامع الأموي، قال:"لي ركن أمام قبر نبيّ الله زكريا، أصلي فيه دائماً، لا أبدّله"، اقترح أن أصلي هناك، كي نلتقي، اعتذرت إليه بأنني أصلي في جامع الشيخ أبو بكر، وهو قريب من بيتي.

تخيلته في جلابية بيضاء، ولحية بيضاء، وعمامة بيضاء، وهو يثبت نظارته الطبية السوداء على أنفه، لعله استبدل بها نظارة بيضاء.

❖

تناقض، تناقض، مثل النارجيلة، ماء ونار، كما قال هشام، أفكر في تعاطي النارجيلة، مثل هشام، هشام يتخلى عنها، وأنا أتعاطاها.

وأنا ما أزال في الحمام تحت الماء البارد، النار لا تنطفئ.

لا أعرف لماذا أكرهه، ليس سيئاً، ليس مخطئاً، هو يقوم بواجبه، هو على صواب، ولكن أكرهه، أكره عمله، أكره جلابيته البيضاء، ولا أعرف إن كان حقيقة قد ارتدى جلابية بيضاء؟، أكره نظارته السوداء، الأمر لا يتعلق بعقل ولا منطق، يتعلق بمزاج.

ولكن لا أنسى كلمة مرة قالها لي، وأنا في ضيافته، يقدّم لي القهوة، وهو يدخن، ويثبّت نظارته، ويطلعني على الطرود والرسائل المصادرة، هي حكمة،

حفظتها، وحاولت مرات كثيرة تطبيقها، ولعلي نجحت مرة، وأخفقت مرات، حكم وأفكار وأقوال كثيرة، نعرفها ونحفظها، ولكن لا نستطيع تمثلها، أو تطبيقها، لا أنسى حكمته، وهو يقول:

- إذا لم يعجبك شيء في إنسان أو طبيعة أو حيوان أو مجتمع أو كتاب أو فلسفة، في كل شيء، إذا لم يعجبك شيء ما، أو اختلفت معه، فهذا لا يعني أن هذا الشيء غير صحيح، أو غير جميل، هذه وجهة نظرك، ولكن لا يمكنك أن تلغي وجوده، أو تلغي تأثيره حتى في حياتك، وليس من الضروري أن تعجب به أو لا تعجب، بل من الضروري أن تبحث عن مبرّر لوجوده، عن علة لهذا الوجود، أن تبحث عن غاية، ولعل الأرقى من هذا أن تجد له تفسيراً، أن تبحث عن علاقاته بكل ما حوله من عناصر مكوِّنة، عندئذ ستجد أن كل شيء مبرر، وصحيح، بل جميل".

وصمت، رشف من فنجانه، نفث دخان السيكارة، ثم أضاف:

- ولكن هذه درجة لا يقدر عليها إلا الكبار الذين يستوعبون كل شيء، ويمتلكون نظرة كلية شاملة، ولا ينظرون في الجزئيات والتفاصيل نظرة تعزل الجزء عن الكل.

وأنا أغادر مكتبه، استوقفني عند الباب، وقال بإلحاح، وأنا أحاول التملص منه والخروج:

- الخلاصة، كل شيء جميل، بشرط أن ترى علاقاته بما حوله وتدرك الغاية منه، بحسب موضعه هو مما حوله، لا بحسب نظرتك أنت أو موضعك، كل شيء له قيمة وغاية.

❖

كلام صحيح، ولكن نحن بشر، تغلبنا الأهواء والانفعالات.

كم كنت أكره الحكم والمواعظ والخلاصات، ولعلي ما أزال.

يا إلهي، لماذا لا نعيش مثل الحمامات البيض، في الفضاء الحر، من غير أقفاص.

وعدتُ أبو محمود أن أعطيه الحمامات، اليوم بعد صلاة الجمعة سيمر ليأخذ الحمامات، ليطلقها في فضاء القرية. لن أعطيه القفص، سيبيعه، المشتري سيستخدمه مرة ثانية لحبس الحمام، سآتي بحدّاد، أطلب منه تفكيك القفص، ليأخذه بعد ذلك قِطَعَ حديدٍ مفكّكة.

❖

زوجتي تقرع باب الحمام، تدخل.

- تأخرت كثيراً، قلقت عليك.

تناولني المناشف المعطّرة، تضمني إلى صدرها، تهمس:

ـ أنا معك، لا تقلق، قل لي حبيبي: بماذا كنت تفكر؟.

تقدم لي كأس شاي ساخن. لا أريد أن أزرع في مخيلتها صورة أكرم، الكرة المدورة، لن أحدثها عنه.

ليس هو العجز، بل هو القهر. هشام، جاري الطيب، ما يزال يتصوّرني أعزب، يظنني عاجزاً، لن يصدق أني من مواليد برج الثور، في العاشر من شهر أيار.

❖

كان موتها مفاجئاً، والموت دائماً يأتي مفاجئاً، لا يُصَدَّق، حتى لو كان المرء في التسعين، أو تجاوزها، حتى لو كان على فراش الموت.

ارتفعت حرارتها، موجة برد عادي، مناخ حلب بارد، لا بد من موجة برد في مطلع الشتاء، لا بد من انتشار الزكام، "ليت ليلى هنا لتعالجني"، هكذا قالت، ولكن ليلى في أمريكة. قالت لي:"سأنزل إلى المستشفي بجوار البريد، لآخذ إبرة"، كنا في المكتب، في مؤسسة البريد، نهضت لأنزل معها، أصرّت على النزول وحدها، هي مجرد إبرة عادية، أكدت ذلك، نزلت ولم تصعد.

ثوب زفافها الأبيض ما يزال في الخزانة، ما ارتدته.

❖

وافقت على اقتراح والدها، ولكن قالت:

ـ أوافق على العيش مع الأستاذ بكري، في منزل واحد، تحت سقف واحد، ولكن بشرطين اثنين.

صمت أبوها، صمتنا جميعاً، لم تتكلم، طال الصمت، نظرتْ في الوجوه ثم قالت:

ـ أنا أوافق كُرْمَى لابنتي، لأنها تحبّ الأستاذ بكري، وكُرْمَى لزوجي، واحتراماً لوصيته، الشرط الأول ألا ألبس ثوب الزفاف الأبيض، لأنني وعدت سامي ألا أرتدي ثوب الزفاف الأبيض من بعده، والشرط الثاني: أن يعيش هو في بيتي، حتى لا تشعر ابنتي بالغربة في الانتقال إلى مسكن آخر، أنا أعرف أن شقة الأستاذ بكري أوسع وأجمل، ولكن....

وأجهشتْ في البكاء، ولم تستطعِ الكلام. هم أبوها بالكلام:

ـ ولكن يا ابنتي..

قاطعتُهُ أنا من حيث لا أدري وبعفويّةٍ قائلاً:

ـ أنا موافق، ياعمي، على كل ما يريح نوال وابنتي حبيبتي ليلى.

أضافت:

ـ وعندي شرط آخر، وأخير.

نظر أبوها فيها مدهوشاً، نظر إخوتها الثلاثة ﯾﮯ صامتين، قالت:

ـ لا أريد أي ولد بعد ليلى، أريد أن يكون وقتي كلّه لها، كانت ولادتها قيصرية، لا أريد تكرار المعاناة، وأنا بعد ذلك ﯾﮯ الأربعين، والحمل ﯾﮯ هذا العمر غير مريح، بل خطر.

وتدخّل الأب فقال:

ـ ولكن يابنتي، الأستاذ بكري ليس عنده ولد، ومن حقه....

تدخّلْتُ أنا فقلتُ:

ـ أنا لا أفكر ﯾﮯ الأولاد، وعندي بعد ذلك ليلى، هي ابنتي.

❖

الجلابية البيضاء ما تزال محفوظة ﯾﮯ الخزانة. ثوب زفافها الأبيض ما يزال محفوظاً ﯾﮯ خزانة ثيابي، أراه كل يوم صباح مساء. هل مرت حقاً عشر سنوات ونحن معاً تحت سقف بيت واحد، وهل مرت حقاً من قبل عشر سنوات ونحن ﯾﮯ مكتب واحد؟ هل ضاعت نجوى ﯾﮯ حلب؟ هل رجعت من المملكة؟ هل استولى هشام على المعمل وعلى عقلي وأحلامي ومستقبلي؟ لا أعرف.

❖

ذهبنا ذات يوم بسيارتي ﯾﮯ نزهة إلى مصيف قريب، هي وابنتها وزوجها، وأنا، أمضينا يوماً، رجعنا مساءً، على المائدة كانت أنظارنا قد التقتْ، أحسستُ ﯾﮯ نظرتها شيئاً، أو ﯾﮯ نظرتي أنا، لعلي تمنّيْتُها زوجة، أو اشتهيتُها، طردتُ الفكرة، مرّتْ عفوَ الخاطر، نسيتُها نهائياً، بعد زواجنا تذكرتها. طوال عشر سنوات من عملها معي تحت سقف مكتب واحد، ما نظرتُ إليها نظرة رغبة أو اشتهاء، ما فكرتُ ﯾﮯ ذلك، ولا خطر لي على بال، كنت أراها بنتاً أو أختاً أو زميلة عمل، كنت أعاملها بلطف ﯾﮯ حدود علاقة العمل. لكن ﯾﮯ ذلك اليوم، ﯾﮯ أثناء النزهة، مرت بي تلك الخاطرة، ثم نسيتُها كلياً، ما تذكّرْتُها إلا بعد الزواج.

قلت ﯾﮯ نفسي: ليتني كنت قد رويت تلك الفكرة لصديق، أو ليتني سجلتها، كثيراً ما نمرّ بتجربة، نتوهم أننا كنا قد توقعناها، ثم سرعان ما نطرد هذا التوهم، نخشى أن نظن أنفسنا أنبياء، أو ملهمين، نخشى أن نعيش ﯾﮯ مثل هذه الحالة من التوقع، ولكن هل حقاً مرت تلك الفكرة ﯾﮯ خاطري؟ لعلي توهمت مرورها بعد أن تزوجنا. رحماك يارب.

❖

فور وصولي إلى الشقة سوف أستحم، أرتدي الجلابية البيضاء، أرش من العطر الذي أهدتني إياه دلال، وأمضي إلى الجامع مع هشام، سأرتدي الجلابية البيضاء أول

مرة. مرت على زجاجة العطر ثلاث سنوات، وهي في الخزانة مخبوءة، لا أعرف، هي هدية دلال لي قبل أن تغيب، هل أصبحت دلال مديرة مثل سائر المديرين؟ هل حقاً زورت وسرقت؟ هل حقاً ساعدها أحد ما على إنجاز رسالتها للدكتوراه. لم أحقق، ولم أسأل، هربت، أنا هربت، لم أرد أن أعرف، أبقيت صورتها في خيالي، أبقيت ظلها العابر في حياتي، كما هي بفساتينها الزاهية.

❖

أحب المصلِّين في الجامع وهم في الجلابيات البيض، مثل زهرات الياسمين البيض، وشذى الياسمين يرفُّ مع صدى آيات الذِّكْر الحكيم. لم أكره الجلابية البيضاء، لكن كرهت ارتداءها، أو بالأحرى قررت ألا أرتديها، ما كنت أريد أن أرتديها وهي ذكرى ممَّنْ أحببتُ وخانتني وذهبت إلى هضبة نجد، ولم تذهب إلى هضبة العرقوب، تركتني من أجل المال. هل كل ما مضى من عمر حقيقة وواقع؟ أم هل هو حلم؟

❖

أبواق السيارات ورائي تنطلق، موسيقا الزحام والضجيج، موسيقا الحياة. إذن كل ماكان حقيقة وواقع، وأنا لست في حلم.

❖

توفيت نوال وأنا في الستين، توفيت وأنا أحوج ما أكون إليها، بعد شهرين من وفاتها تمت إحالتي على التقاعد، بعد ثلاث سنوات سكن هشام في الشقة التي فوق شقتي. وحده هو الآن من يسلّيني. أنا الآن في الخامسة والستين، قبل ثوان كنت على وشك أن أكون في المشفى أو في القبر، لا ليس في القبر، بل في رحمة الله، ليس القبر سوى مثوى الجسد، أو الجثمان، رحمة الله المأوى، وجنّته هي المستقر.

ولكن ما أزال في الدنيا على قيد الحياة.

لم أمت الآن، ولكن قد أموت غداً. فور وصولي سوف أكتب وصيتي، وأنا ليس لي وريث: "الشقة التي يسكنها المستأجر يتملّكها بعد وفاتي، الشقة التي أسكنها يرثها هشام، هشام جاري الطيب". هشام المدير سامحته في كل شيء.

❖

شقة نوال لي فيها حصة من الإرث، ولإخوتها كذلك، ولأبيها، وليلى لها حصة، ولكننا جميعاً تنازلنا عن حقنا في الإرث لصالح ليلى.

أرجو أن أخرج من الدنيا وليس لي فيها أي شيء.

أسأل الله تعالى الجنة ...من غير حساب.

الفصل الرابع
مع روضة..في شقتها

١٠. أبواب ونوافذ ...من غير زجاج

إشارة حمراء أخرى، لا بد من الوقوف عندها. لن تطمئن نفسي، فيما يبدو، إلا بعد أن أتكلم على روضة. هي آخر قصص حبي، بل هي أولها.

❖

تهب ريح شتوية عاصفة، يثور الغبار، تتطاير أوراق، زوبعة صغيرة تلفّنا معاً، تلتصق بي، أحس دفء جسدها، الغبار يملأ العيون، لا نكاد نرى، وتبدأ حبات المطر بالانهمار، ننعطف راجعين، نقصد المكتبة، حيث تركنا الدفتر للتصوير، ولكن الريح تصدّنا، نرجع، نلجأ إلى مدخل بناء، والريح تعوي، والمطر ينسكب، والبرق ينفجر، والرعد يقعقع، الريح تملأ مدخل البناء، يضاء الدرج، صوت أقدام تنزل على الدرج، طفل يكلّم أمه، صوت رجل، نغادر المدخل، نجتاز الشارع راكضين، المطر غزير جداً، أقدامنا تغوص في سيول، نجد نفسنا في مدخل بناء آخر، هو بناء جديد لم يكتمل، في مدخله أتربة وحصى وأكياس إسمنت وأخشاب وحديد، نصعد درجات إسمنتية، الدرج معتم، لا مسند له، تمسك بيدي، نصعد إلى الدور الأول.

أمام باب البناء غرفة إسمنتية صغيرة، يسكنها الحارس، لها نافذة زجاجية مضاءة، في الداخل ضجيج وبكاء أولاد، مررنا به، ولم يحس الحارس بنا.

الدور الأول مفتوح، لا باب له، ندخل شقة إسمنتية، غير مكتملة البناء، العتمة مسيطرة، ثمة نور يتسرب من مصباح الشارع، مع التماع البرق نرى موطئ أقدامنا، تشد على يدي، حجارة وقطع أخشاب وتراب وأكياس إسمنت، تستند على ساعدي، مع كل خطوة تتعثر، تلقي بجسمها على كتفي، تلعن الكعب العالي، أحس بأنفاسها، أشم رائحة جسمها، رائحة شعرها وقد بلله المطر، نستند إلى الجدار، نهدأ، يجب ألا نأتي بحركة، نسمع صوت أقدام.

- يا إلهي، أخشى أن يحس بنا الحارس، ماذا لو صعد ورآنا هنا؟، سيفضحنا، سيطلب الشرطة من غير شك، لن يصدق أننا نختبئ من المطر، أرجوك، قل لي ماذا سنفعل؟.

- لا تتكلمي، لا تتحركي.

تختبئ في صدري، أشدّها إلي، أحس بسخونة جسمها، رأسها مختبئ في عنقي، يدي تحيط بعنقها، أناملي تعبث بشعرها المبلل، يداها تحيطان بخصري، تتشبث بي، ينفجر البرق، يقعقع الرعد، تصيح.

ـ ماما.

تشد بكلتا يديها على خصري، كأنها تريد الدخول بي.

نعبر أبواباً خشبية لا زجاج لها، ندخل إلى غرفة أخرى، صوت وقع أقدام.

ـ الحارس.

ـ لا، اطمئني هي خطوات رجل في الشارع.

آخذ وجهها بين يدي، أهمس لها:

ـ لا تخافي، أنت معي، فقط اسكتي.

تصيح وهي ترتجف من الخوف:

ـ خائفة، خائفة.

أضع يدي على فمها، أحس حرارة أنفاسها، شفتان نديتان، أطوق خصرها، يداها تلفان ظهري، تشدني إليها، تتعلق بي، كأنها توشك على السقوط.

نباح كلب من بعيد، قعقعة علب كولا، زمجرة رعد، هسيس مطر ينهمر، نشيش سيارات تعبر الشارع، عجلاتها تغطس في السيل، نسمع لها صوتاً، ويملأ الضوء الغرفة، نسرع إلى ركن آخر، نعبر باباً لا زجاج فيه، نركن إلى زاوية.

❖

هي المحاضرة الأخيرة ليوم الإثنين، موعدها الساعة السابعة، ندخل إلى المدرّج، ننتظر حتى السابعة والربع، الدكتور لم يأت، يدخل مراقب الدوام ليعلن: "الدكتور يعتذر عن الحضور"، تعمّ الفرحة، هو شعور كل طالب، المحاضرة مهمّة، والمقرّر الذي يعطيه الدكتور من أهم المقررات، القانون الدولي، أكثر الطلاب كانوا حريصين على الحضور، حتى الطالبات، لا شك في أنهن وجدن صعوبة في إقناع أهلهن بضرورة الحضور، فالمحاضرة في السابعة، وتنتهي في الثامنة والنصف، أي بعد العشاء بأكثر من ساعتين، العشاء يؤذن له في الشتاء في السادسة، وتأخر الطالبة إلى الثامنة والنصف أمر محرج، وهي لن تصل إلى بيتها حتى التاسعة، وربما التاسعة والربع.

ونغادر المدرج، تقترب مني تسألني:

ـ هل من الممكن استعارة دفترك، لم أحضر محاضرة الصباح.

ليست المرة الأولى التي تستعير فيها دفتري، استعارته من قبل مرات كثيرة، أنا أداوم ولا أنقطع، وهي لا تداوم إلا لماماً، أضافت:

ـ سنمر بمكتبة الأندلس، لن أستعيره، أصور المحاضرة وأعطيك إياه.

❖

كثيراً ما استعارته، وكثيراً ما مضينا إلى مكتبة الأندلس القريبة من الكلية لنصور المحاضرة.

دخلنا المكتبة، ثمة ازدحام، طلاب كثر، طلبت من شاب واقف وراء آلة التصوير أن يصور لي عشرين صفحة من الدفتر، أجاب:

- ضعه هنا ليأخذ دوره، طلبات التصوير كثيرة اليوم، يمكن أن تغيب نصف ساعة، أو ساعة، لترجع فتأخذ الدفتر والصفحات مصورة.

التفتّ إليها مستفسراً، أشارت برأسها دليل الموافقة.

- سنذهب إلى استراحة النخيل، نتناول فنجان قهوة، نمضي الوقت حتى يصور الصفحات، ما رأيك؟

ونمضي معاً، أيضاً ليست أول مرة نقصد فيها استراحة النخيل، ليست بعيدة من الكلية. ولكن الجو مختلف، ريح وغيوم سوداء تملأ السماء، جو ينذر بالمطر.

❖

نحس بالمطر قد هدأ، أصبح فيما يبدو رذاذاً، نطل من نافذة من غير زجاج، لها إطار خشبي، ولكن ليس لها زجاج. تقول ممازحة:

- لا تفتح النافذة، حتى لا يدخل البرد والمطر.

ننظر إلى مصباح الشارع، المطر ينهمر، ضوء المصباح يتخلل خيوط المطر.

نقف متلاصقين، يدي تطوقها، أناملي تعبث بشعرها المبلل، أشم رائحته، وهي ترخي رأسها على كتفي، تطوق خصري بيدها. نرى الحارس يخرج من غرفته، هو وزوجته، نبتعد عن النافذة قليلاً، الحارس يحمل سلماً خشبياً كان ملقى على الأرض، يسنده إلى جدار الغرفة. ينادي زوجته:

- زهرة، أمسكي السلم، سأصعد إلى السطح، السقف سينهار، ماء المطر تجمع فوق السطح، المزراب مسدود.

يصعد السلم، يدفع المزراب، يزيل ما سد به من تراب وطين.

ويتدفق الماء من المزراب.

❖

هيا لننزل. أمسك بيدها، نجتاز باب الغرفة، هو باب خشبي، لا نفتحه، بل نعبره، فليس فيه زجاج، هو مجرد إطار باب.

- حلوة هذه الأبواب، لا زجاج فيها، ولا عوارض، لا مقابض ولا أقفال، هي مغلقة، ولكنها مفتوحة.

وهي تجتاز الباب، تتعثر قدمها، أشدها إلى صدري.

- هناك صوت، انتبهي، الحارس ما يزال في الخارج، معه مقشة وهو يدفع الماء المتراكم أمام غرفته، كيف سنخرج؟ كيف سنمر به؟ علينا أن ننتظر.

- إلى متى سنبقى هنا؟

ـ ليتنا نبقى هنا إلى الفجر.

ـ ليتنا نبقى، ولكن أنا مبللة، أشعر بالبرد، معطفي كأنه خارج من غسالة.

ـ وأنا مبلل من الخارج والداخل.

تدق بيدها على صدري، تهمس:

ـ أنت وحش، ما كنت أتوقع منك هذا.

ـ أنا آسف، أعتذر إليك.

ـ لا تتأسف هذا طبيعي، أنا مبللة أكثر منك.

أضمها إلي صدري، أقضم شفتها، يداي تغوصان تحت المعطف، تتسللان إلى ما تحت الثياب، تتغلغلان في شوارع حلب وأزقتها وعماراتها وأسواقها وساحاتها وحدائقها، هي مدينتي، أول مرة تستسلم لي، تغفو.

ينفجر البرق، يقعقع الرعد، يتدفق المطر غزيراً، كأن خزانات قد فتحت، المطر ينصب من المزراب غزيراً يتدفق.

❖

كانت أحياناً تقعد بجواري في المدرج، ولكن في محاضرة الساعة الثانية من اليوم التالي قعدت بعيداً عني. بعد المحاضرة، خارج المدرج اقتربت مني سألتني:

ـ هل مررت بمكتبة الأندلس؟

ـ لا

ـ وأنا ما مررت، سنمر بها معاً.

ـ الجو بارد اليوم.

ـ هل نختبئ في الشقة نفسها؟

ـ لا، لا يمكن أن توفر لنا الدفء.

نغادر مبنى الكلية، نجتاز حديقة الجامعة، نصل إلى الشارع.

ـ سنذهب إلى مقصف قريب، نشرب الشاي.

ـ أحس بالجوع.

ـ نذهب إلى مطعم.

ـ عندي فكرة.

تشير إلى سيارة أجرة، وهي تقول:

ـ انس الدفتر، وانس عمارة أبوابها بلا نوافذ، سنذهب إلى شقة دافئة.

أتردد، السيارة تقف أمامنا، تقول:

ـ أنا سأخطفك على طريقتي، هيا، افتح لي الباب مثل أمير، وقل لي تفضلي، مثل أميرة، ثم اقعد بجواري، أو بجوار السائق إذا شئت، وقل له: "أمام مشفى الأمل"، ننزل هناك مباشرة، تعال اركب إلى جواري.

❖

شرارة كهرباء تقدح في الفاصل، النار تشتعل، الأسلاك الكهربائية تتفسخ، النار تمتد إلى باب الشقة. أنهض مذعوراً، أسرع إلى غرفة جدّتي، أراها قاعدة تذكر الله، تتلو في القرآن، بعد أدائها صلاة الفجر.

ـ هل صليت يا ولدي؟ والدك كان لا يترك الصلاة، عليه رحمة الله.

ما أزال أذكر ذلك الحلم، كان مروّعاً، اليوم فقط، عرفت تأويله، بعد أربعين سنة أو أكثر عرفت تأويله، كنت في الثانية والعشرين.

❖

هي الأخرى ضاعت، ضاعت في حلب، ما عدت رأيتها، ولاسمعت عنها، ولا أعرف عنها أي شيء، لا أعرف كيف تمر الأيام. حتى الشقة التي دخلناها ما عدت أعرفها، حتى العمارة ما عدت أعرفها، ضاعت في زحمة العمارات، مقصف النخيل، لم يعد له وجود، حتى مكتبة الأندلس، كلية الحقوق ألغيت، أغلقت عدة سنوات، ثم أعيد افتتاحها في مبنى آخر. أما شقة صديقتها، ثم عرفت أنها شقتها هي، فما أزال أذكرها، أعرف موضعها بالضبط، ولكن أتحاشى المرور أمامها، لا أريد استثارة ذكريات.

ترى هل ستقع هذه الرواية بين يديها؟ هل ستقرؤها؟ وهل ستقرؤها دلال؟

❖

بعد يومين، وأنا أغادر المدرّج، يقترب مني جمال، يحييني، يسألني عن موعد الامتحان، يسير بجواري، يسألني أن أعيره دفتري، أصارحه: "وعدت أن أعيره إلى روضة"، أحاول الالتفات، أصطنع البحث عنها، لكنه يهمس لي:

ـ أريدك في موضوع خاص، سنسير قليلاً في حديقة الكلية.

أنا على موعد مع روضة في موقف الحافلة، هكذا اتفقنا، يوم أمس، أن يكون اللقاء في موقف الحافلة، ومن هناك نأخذ سيارة أجرة، ونمضي إلى شقة صديقتها.

❖

احتوتنا شقة صديقتها، شقة صغيرة، في حي بغرب المدينة، تتألف من ثلاث غرف، ومطبخ، صديقتها طالبة في كلية الطب، كثيراً ما تمضي الوقت معها، تنام في شقتها، أعدت لنا غداء خفيفاً، ثم اعتذرت، غادرتنا، عندها دوام في المستشفى. الشقة أصبحت خالية لنا.

كنت شديد الحرج، كنت مهذَّباً جدّاً، ولكن إحساسي أننا في الشقة وحدنا جعلني أتوتر، نحن في شقة مفروشة، وثمة أبواب خشبية ونوافذ وزجاج، ثمة مطبخ، تسطع منه رائحة القهوة، ثمة سرير دافئ، وخزانة ذات مرآة، وصور على الجدار لممثلين وممثلات، ثمة تلفزيون إلى جواري، وتحته جهاز فيديو، وأشرطة عرض كثيرة، لا شك فيها أفلام من نوع ما. لا حاجة للجرأة، لا حاجة للشجاعة، لا حاجة للخجل، نحن وحدنا. شقة صغيرة مكتملة، كأنها حلم جميل، حوض أسماك صغير، إلى جوار التلفاز، قفص صغير يحتضن كنارياً أصفر كالعسل، قطة سيامية صغيرة، سلحفاة في الشرفة، عمرها خمسة أعوام.

زجاج النافذة أمامي يكشف عن برج حديدي يحمل هوائياً لاستقبال قنوات فضائية، البرج ينتصب عالياً، يشق عنان السماء، يملأ النافذة، كأنه انتصب أمامها عن عمد، أو كأنها بنيت في مواجهته، لتكون إطاراً له، تنفتح عنه، وهو يخترقها في انتصاب شامخ. أنهض لإسدال الستارة على النافذة، تقول لي:

ـ نحن في الدور الخامس، نحن نرى العالم، لا أحد يرانا، لا تسدل الستارة، أنا أحب منظر البرج، يؤنسني ولا سيما في الليل، يسليني الضوء الأحمر في رأسه، وهو يشع، ينبض، أنام على حركته، كأنه يهدهدني.

❖

أرجو من جمال أن يتكلم بسرعة، ونحن نسير في حديقة الجامعة، فهي من غير شك في موقف الحافلة تنتظر، والشقة الخالية تنتظر، ولعلها أشارت إلى سيارة أجرة واستوقفتها، لكنه يسير ببطء ولا يتكلم.

ـ لا أعرف كيف سأبدأ معك الموضوع.

ـ ابدأ مباشرة وبوضوح.

ـ طبعاً ليس بيننا من قبل أي لقاء، أو تعارف، للأسف، ونحن زملاء، وأنا أعرفك من السنة الأولى، وأعرفك أكثر، والدي يعمل في معمل الوالد عليه رحمة الله، هو يذكر والدك بكل خير، وأنا أعرفك من السنة الأولى، أنت مهذب وطيب.

❖

جمال، لا أحبه، أعرفه عن بعد، هو من الطلبة المقصِّرين في دراسته، أسمر قصير، حاجباه كثيفان، فمه واسع، هو من الطلبة المشاغبين، أكثر من مرة اضطر بعض الأساتذة إلى إخراجه من المحاضرة، العام الماضي ضبط وهو يغش، صدرت بحقه عقوبة الحرمان من الامتحان دورتين، وهو مع ذلك لا ينقطع عن الدوام، لا في المحاضرات، بل في الكلية، في المقصف، في البهو، في الممرات، من الصباح إلى المساء.

تخرجت، ولم يتخرج، ما عدت التقيته، هو الآخر ما عدت سمعت عنه أي شيء، كل زملاء الدفعة لا يعرف أحد منا ماذا حل بالآخر، لعل سبب ذلك أني لم أعمل في القضاء ولا المحاماة، لو عملت كنت التقيت ببعضهم.

❖

شعرت بالضيق منه، نظرت في ساعة يدي، قال:

ـ لن أطيل عليك، وبصراحة، الزملاء يراقبونك، بعض الزملاء طبعاً، روضة تستعير منك الدفتر، تمشيان معاً إلى المكتبة لتصوير المحاضرات، هذا أمر عادي، ولكن بعضهم شاهدك معها تدخلان إلى بناء قريب هنا من الجامعة، أمام بناء جديد لم يكتمل.

أشعر باستياء، أستنفر، يفور الدم في عروقي، ولكن أسيطر على نفسي:

ـ هذا صحيح، كان المطر ينهمر غزيراً، احتمينا بالمدخل من المطر، هي إحدى الزميلات، وكما قلت هي دائماً تستعير دفتري، وهذا ليس بسر، نعم، ونحن نسير معاً إلى مكتبة الأندلس للتصوير، والشاب الذي يعمل في المكتبة يعرفنا.

يرد بهدوء:

ـ هذا كله صحيح، ولكن يجب أن تعرف أن روضة كانت على علاقة مع شخص، وربما ما تزال على علاقة معه.

❖

أشعر باستياء، أحس بشيء ما يخترقني في الداخل. أرد بشيء من اللامبالاة:

ـ هذا لا يهمني، هي مجرد زميلة في الكلية، تستعير دفاتري، وأحياناً أمشي معها إلى المكتبة، وأحياناً أشرب معها القهوة في استراحة النخيل، هنا بجوار الجامعة، هي ليست عشيقتي ولا أنا عشيقها، ولها حياتها.

ـ ليس هذا هو المشكل، أنت لا تعرف، هي صديقة رجل له في هذا البلد دور كبير، وبصراحة هي عشيقته، والأفضل أن تبتعد عنها، لأنه قادر أن يؤذيك، وأنت تسيء إلى سمعتك بصحبتها.

ـ هل هذا تهديد؟!.

ـ أرجوك، أتمنى ألا تسيء فهمي، أنا من طرفك، أنا أنصح لك، وأنا مضطر أن أقول لك إنه مدير أحد المصارف الخاصة، يجب أن تقدر قوته، وتعرف مناطق نفوذه.

ـ وهل عندك دليل؟

ـ قبل عامين، وهي في السنة الأولى، كان يوصلها إلى كثير من المحاضرات بسيارته، وكثيراً ما كان ينتظرها، ليعود بها، حسبناه أول الأمر والدها، ولكن

عرفنا بعد ذلك أنه مدير مصرف، وأنها موظفة عنده، أنت تعرف نحن الزملاء أصحاب فضول، نريد أن نعرف كل شيء، ولا سيما عن الزميلات.

ـ هذا كله لا يهمني، هي كما قلت لك مجرد زميلة.

ـ لا بأس، أنا سوف أصارحك أكثر، أحد الزملاء قال: لعلك تتودّد إليها كي تسعى لك عند عشيقها، فهو يستطيع أن يسترد المعمل من المدير، ويعيده إليك، ولكن زميل آخر نفى ذلك، وقال: روضة هي التي تتودد إليه، لا هو، أنت لا تعرف، الزملاء هنا يراقب بعضهم بعضهم الآخر، وهم يعرفون كل شيء عنك.

أضحك، أقول له:

ـ هذا الكلام نفسه يؤكد أن أفكار الزملاء مجرد أوهام وظنون، صلتي بها لاتتجاوز استعارة الدفتر وتصويره وشرب فنجان قهوة في الاستراحة، استراحة النخيل.

ـ أنا أصدقك، وأثق بك، وأرجو أن يبقى هذا الحديث بيننا، ولكن راجع نفسك.

❖

كانت أول صدمة لي في الحب، والحياة، والجنس. لماذا لم تخبرني؟ لماذا لم تصارحني؟ ولكن هي لم تخدعني، منحتني كل شيء، ولم تطالبني بشيء.

❖

مشيت نحو موقف الحافلة، كانت ما تزال واقفة تنتظر، قبل أن أصل إليها، أشرت إلى سيارة أجرة، ركبت فيها، وانطلقت، وأنا أمر أمامها أشرت بيدي. نزلتُ أمام مستشفى الأمل، ثوان، وإذا هي تنزل من سيارة أجرة. صعدنا معاً إلى الشقة.

ـ أحسنت، خطتك ذكية، لا ضرورة لأن نركب معاً في سيارة أجرة واحدة، بل لا ضرورة للمجيء من الكلية إلى هنا، عندما تشتاق لي اتصل بي، وعندما أشتاق لك، أتصل بك، ونلتقي هنا مباشرة، حتى لو كانت صديقتي موجودة، ستخلي لنا الشقة مباشرة، هي صاحبة ذوق وتقدّر.

❖

ستة أشهر مرت، وأنا ألتقي بها، هنا في شقة هدى صديقتها، أو بالأحرى شقتها، كما عرفت فيما بعد، كل يومين كنا نلتقي، وأحياناً كل يوم، أخرج من الكلية، آخذ سيارة أجرة، وتأخذ هي سيارة أجرة، أحياناً أسبقها، وأحياناً تسبقني. ما استعملت قط سيارة والدي، طوال سنوات دراستي في الكلية، مع أنها مركونة بجوار الرصيف أمام العمارة، ما كنت أريد الحضور بسيارة شيفروليه فاخرة إلى الكلية أمام زملائي، كنت أعلن أمامهم عن كرهي لأبي، كنت أعلن عن أفكاري التقدمية في حواري مع الأساتذة. وبقيت محتفظاً بكلام جمال لنفسي، صدقته، أو لم أصدقه، بقيت على صلة بها، طوال ستة أشهر.

ولكن ذات يوم جننت. أشياء كثيرة لا نفعلها، ثم نندم عليها.
أشياء كثيرة نفعلها، ثم نندم عليها.

١١. سرير الدولارات

لا أعرف كيف أخطأت ذات يوم وسألتها، وأنا في شقتها:

ـ أريد معرفة حقيقة علاقتك بعبد القادر إسماعيل؟

صعقت، نهضت، شتمت، رمت مزهرية، شدت شعرها، صاحت:

ـ من أخبرك؟ أي سافل؟ أي حقير؟ أنا أحببتك، أحببتك، والله أحببتك، ما طلبت منك أي شيء، لم أطلب أن تتزوّجني، لم أخدعك، لم أكذب عليك، نعم، عبد القادر اغتصبني، أنا أكرهه، أود أن أقتله، ولكن لا أريد أن ألوث يدي به، لا أريد أن أنهي عمري عنده، أنا أحبك، اقتلني، اذبحني، لا، أنا مستعدة لأعيش العمر كله معك، هكذا، لا زواج ولا بيت ولا أولاد، لا أريد أي شيء، لا أنكر، أتمنى أن تملأ رحمي بولد، أتمنى أن أحمل منك بولد يشبهك، اسميه باسمك بكري، ولكن لن أفعل هذا، لا أريد أن أورّطك، أنا أحبك، أنا مستعدة للتخلّي عن كل شيء لأجلك، لا أريد أكثر من أن تحبّني، أنا منحتك كل شيء، عقلي وقلبي وروحي وجسدي، أخشى أن تكون أخذت فقط جسدي، ألم تشعر بعواطفي، ألم تدرك مدى حبي لك، هل نسيت الشقة في البناء غير المكتمل، والنوافذ التي لا زجاج لها، من هناك بدأنا، الشقة هناك اكتمل بناؤها، سكنت، ملئت بضجيج الأولاد، ولكن نحن تحطمنا.

تلقي بنفسها على الأريكة إلى جواري، تسند رأسها إلى صدري هنيهة، تنهض:

ـ أجبني، هل تحبني؟ ستة أشهر، لم تنطق بكلمة حب، سأعد فنجان قهوة، وإلى أن أرجع، فكر.

تمضي إلى المطبخ، تتأخر قليلاً، أحس بالخطر، أخشى أن تقدم على شيء ما، أنهض، أراها قادمة.

تقعد قبالتي، تستل من الخزانة علبة تبغ، تدخن، أول مرة أراها تدخن، ترشف قهوتها، أناملها ترتعش، تحاول السيطرة على نفسها، تتكلم بهدوء بهمس:

ـ سأحكي لك كل شيء، فقط أرجوك، اسمعني، عيّنني مديرة مكتبه، سنة كاملة وهو يعاملني بلطف وهدوء، ضمن أصول العمل، عملت عنده فور نيلي الشهادة الثانوية، مع دخولي إلى كلية الحقوق، شابة جامعية متفتّحة، أردت أن يكون لي حضوري، أن تكون لي شخصيتي، أبي يتعامل معه، هو مدير مصرف خاص، والدي تاجر قطع تبديل سيارات، رصيده في المصرف، كل الحوالات يجريها عنده، كنا نبقى في المصرف بعد انصراف كل الموظفين، كل يوم نبقى إلى السادسة، أو حتى

الثامنة، يطلب غداء من المطعم، نتناول الغداء في مكتبه، لا أحد في المصرف سوى الحارس على الباب الخارجي، بعد تناولنا الغداء، يدعوه، يحمل ماتبقى من طعام، يعد لنا الشاي، ثم نعود إلى العمل معاً، هي ساعات العمل الجاد، أرسل الفاكسات، أطبع على الآلة الطابعة الأجوبة، أدقق معه في بعض الحسابات، ننهمك في العمل، ثم يوصلني إلى البيت، هو في الخمسين، كنت أتوقع بين ساعة وأخرى أن يضمّني إلى صدره، أن يقبّلني، أن يلمس يدي، لا أنكر، أنا أنثى في أوج تفتحها، وهو رجل، مكتمل الرجولة، ونحن وحدنا في المكتب، ما زاد في تشوقي إلى أن يعاملني كأنثي، أو توقعي ذلك، أنه كان دائماً يخاصم زوجته، أسمعه يرد على هاتفها بجفاء، بقسوة، يؤكد لها أنه سيتناول الغداء في المصرف، سيتناول العشاء مع أصحابه، سيتأخر، أدركت أن حياته في المنزل مع زوجته غير مستقرة، بل غير مريحة، هذا مما زاد في توقعي منه أن يغازلني، كنت أحياناً أشعر باستياء من تعامله الجاد معي، بصراحة، أعجبت بعلاقاته الواسعة، ذاكرته قوية، صاحب نفوذ، يحل مشكلات كثير من المواطنين، ليس في داخل المصرف، بل في مؤسسات ودوائر أوسع، ذات يوم، قال لي:"مرّت سنة على عملك الناجح معي في المكتب، اليوم سنحتفل بمرور سنة، سأدعوك إلى نزهة"، نظرت إليه مدهوشة، قال: "لا، لن نخرج من المصرف، نزهة داخلية، سوف تفاجئك، هي نزهة من نوع مختلف"، ثم صرّح: "سنزور غرفة الخزينة، لتري رزم الأموال، لتعبثي بها"، فتح خزانة صغيرة بجوار مكتبه، أخرج زجاجة خمر، حمل الزجاجة بيد، حمل كأسين بيد أخرى، قال: "سنشرب هناك مع الدولارات، نخب مرور سنة على عملك"، قلت له:"أنا لا أشرب"، قال:"عندما نصل، يمكن أن تقرّري"، كنت من قبل قد رأيت الخزانة، وفتحتها، وعرفت ما فيها، ما شرب أبداً وما دعاني للشرب، كنت أظن أنه يحتفظ بها للزوار الأجانب، أو لعلها هدية منهم، نزلنا بالمصعد إلى المستودع، أسفل البناء، بطابقين، مخزن واسع، مضاء، رفوف كثيرة حافلة بمصنفات، ثمة غرفة ذات باب حديدي مغلق، ليست كما نرى في الأفلام، ولكنها مغلقة بإحكام، دخلنا، لم يغلق الباب وراءنا، تركه مفتوحاً، لأشعر بمزيد من الأمان، أكداس من رزم النقود مصفوفة، بنظام، بعلو متر، كأنها مصطبة أو سرير، قال: "هنا الهدوء والراحة والأمان، هنا كل ما يبحث عنه البشر، كل ما يقتتلون من أجله ويختصمون ويموتون، هو أمامنا، معنا، بين أيدينا، هنا الأمان الحق، هنا مخازن القمح والأدوية والغذاء والسلاح، هنا الأجساد والأرواح، هنا كل شيء"، خلع جاكيته، لم يخلع ربطة العنق، بأناقة وهدوء وضع زجاجة الخمر فوق سرير الدولارات، وضع الكأسين، ثم صب لي، رفع الكأس، وهمس:"في صحتك"، لا أعرف كيف استسلمت، شربت، أول مرة أتذوق الخمرة، لا أعرف نوعها ولا اسمها، كان على الزجاجة حصان أسود، صب

كاساً أخرى، قال:" يكفي هذا"، ثم استلقى فوق الرزم، وكأنها سرير، أخذ يضحك، يرمي الرزم، وهو يهتف:"هي لنا وليست لنا، نعدّها، نحفظها، نلوث أيدينا بها، ولكن لا نملكها"، ملت على الأرض لأجمع الرزم، شعرت بدوار، همس:"لا، اتركيها، سيري فوقها بحذائك"، رماني برزمة، برزمتين، رفعت رأسي، لم أستطع التوازن، ملت على سرير الدولارات، استندت إليه، طوقني بذراعه، صب لي كأساً ثالثة، شعرت أنني بحاجة إليها، مددت يدي لأتناولها، فكدت أقع، نهض، بيده قرب الكأس من فمي، رشفت الكأس الثالثة، توهج جسمي، نضحتني حرارة، شيء ما سرى في عروقي، كأنني بركان، قال:"تعالي استلقي هنا فوقها، هي مريحة، ذوقي متعة الدولار"، ترددت، ولكن الدوار أخذ مني، ساعدني على الاستلقاء فوق الدولارات، استلقيت فوقها، غطاني برزم كثيرة، فك أزرار قميصي، ثم أحسست به يعرّيني قطعة قطعة ويغطيني برزم الدولارات، وهو يهمس: "هي أطرى فراش في العالم، هي أندى لحاف، استمتعي بها"، أحسست بكل جزء في جسمي وقد سار فيه خدر، ثم أخذ يرفع الرزم رزمة رزمة، ليقبل جسمي بقعة بقعة، كأن أفعى تسير فوقي، كلي مباحة له، كنت مطمئنة إلى أنه لم يخلع غير الجاكيت، كنت أراه بكامل أناقته، أحس بلطفه، لم يفك ربطة عنقه، كنت أحس بها فوق جسمي، أحس بشفاهه بأصابعه بنداوة بدفء، ولكن لا حراك لي، لا كلام، أنا مخدّرة، أسمعه يهمس مردداً:"أنت مثل هذه الدولارات، أعدّها، ألمسها، أعيش معها، ولكن ليست لي، أنا لا أملكها، وأنت لست لي، أنا لا أستطيع فعل أي شيء بها، ولا بك"، ثم ناولني قطعة نقدية ملفوفة مثل قلم، مبللة بدم، وهو يقول: "هذا لك، هو الذي... لا أنا، سامحيه، أنا لم أفعل شيئاً"، ثم أمسكني من يدي، وهو يقول: "هيا انهضي، أنت شاطرة، أهنئك، أنت امرأة، يمكنك أن تعيشي، وأن تستمتعي".

تطفئ بقية السيكارة، ترشف آخر قطرة في الفنجان، تنهض، تقف أمامي:

- هل تصدق إذا قلت لك إنه لم يلمس جسدي بعد ذلك، هو عاجز، لا يستطيع فعل شيء، ولكنه أخذ مني كل شيء، لا، لم يأخذ أي شيء، أنت أخذت كل شيء، مزقت القطعة النقدية التي ناولني إياها، أظنها كانت دولاراً واحداً، لا يهمني إن كانت دولاراً واحداً أو مئة، كانت آخر ساعة أرى فيها وجهه، حتى اليوم لم أدخل المصرف، في الطريق إلى البيت، وأنا في سيارته، قال لي: "سنذهب غداً إلى الطبيب ليرتق الجرح، كل شيء يمكن معالجته، ولكن استمتعي الآن، إلى ليلة زواجك، عندئذ يمكن تدبير الأمر، كثير من الفتيات يفقدن العذرية بسبب بسيط، ركوب دراجة، قفزة من فوق رصيف، هو مثل الفتق"، المشكلة أنه كان يوصلني في كثير من الأيام بسيارته إلى الكلية لحضور بعض المحاضرات، يمنحني إجازة ساعة أو ساعتين،

نخرج معاً من المصرف، يوصلني إلى الكلية، يعود بعد ساعتين فيأخذني، أجده بسيارته أمام باب الكلية، كنت أفرح لذلك، ما كنت أقدر دوافعه، كان يريد الظهور معي أمام الطلاب.

تشعل سيكارة ثانية، تقعد قبالتي، تتكلم، تحاول أن تتكلّم بهدوء:

ـ لا شك، أحد الزملاء حدثك عني، لا أستطيع أن أعرف من هو، ولن أسألك، ولكن صدّقني، لم ينل أي شيء، أنت منحتك كل شيء، طبعاً فضحني، ادعى أنه نال مني كل شيء، ادّعى أنه نالني منذ اليوم الأول في العمل عنده، وأني كنت أبقى وحدي معه في المكتب إلى المساء، وأنه ينال كل شيء، وأنني راضية، بدليل أنني مستمرة في العمل، كان يريد أن يشيع ذلك بين الموظفين والموظفات، ليغطي على عجزه، طبعاً الحارس يصدقه، كل الموظفين صدقوه، أنا مجنونة، كنت أظنك لن تعرف أبداً، أنا جئت بك هنا إلى هذه الشقة، بعيداً عن بيتك في العرقوب، بعيداً عن أهلي، بعيداً عن الجامعة، والآن اصدقني، أنا صادقة معك، أنا أحبك، لا لشيء، أحبك، بالجسد والروح والعقل، بكل قواي، يمكن أن نلتقي هنا إلى الأبد، هذه الشقة ملكي، هي لي أنا، في السنة الثالثة، العام الماضي توفيت أمي، تزوجت أخواتي الثلاث قبلي، أنا الصغرى، أبي حتى الآن لا يعرف أي شيء، بدأ عبد القادر يضايقه، أخذ يؤخر تحويل المبالغ إلى رصيده، الأمر بالنسبة إلى أبي بسيط، سحب رصيده من مصرفه، بدأ التعامل مع مصرف آخر، ثم قرر الزواج، طلبت منه أن يشتري لي هذه الشقة، أنا مستقلة عنه كلياً، هدى مستأجرة، أنا أجّرتها غرفة واحدة، على شرط أن أكون في الشقة وقت أشاء، أنا أعيش من أجرتها، كما ترى، في الشقة ثلاث غرف، غرفة لي، وغرفة لها، وهذه الغرفة مشتركة، حدثت هدى عنك، عرفتك، قالت هنيئاً لك هذا الشاب، أعرف عنك كل شيء، فقط أريد أن تصدق معي، هل تحبني؟ لا تسخر مني، لست عاهرة، أنا لك وحدك، وسأبقى إلى الأبد، لن أطالبك بشيء، فقط قل لي: أحبك، ثم إذا شئت فسوف أغيب عن حياتك، لن تراني، الكلية لن أداوم فيها، الامتحان لن أحضره.

تصمت، تحبس الدموع، تهمس:

.عبد القادر حاول النيل مني فوق سرير الدولارات، أنا وهبتك نفسي في شقة غير مكتملة، أنا باب من غير زجاج، كسرني عبد القادر مرة، لكن أنت حطمتني.

١٢. الهبوط على الدرج

يفتح الباب، تدخل صديقتها، أنهض، أحييها، ثم أتوجه نحو الباب.

عند الباب، تقف، تتكلم بهدوء:

ـ أعرف، صمتك يقتلني، لن تعود، عرفت هذا، أنت رجل، وستكون لك حياتك من غير شك، سوف تتزوج وتنجب، المجتمع يطالبك بذلك، فقط قل لي: "أحبك"، طوال ستة أشهر لم تلفظ هذه الكلمة، لم تنطق بها، أرجوك، فقط، قل: أنا أحبك، وأعدك، سأخرج من حياتك، ولكن سأحتفظ بحبك لي إلى الأبد، سأحفظ جسدي لك إلى الأبد.

❖

جبان، أنا جبان، لا خوفاً من تهديد، ولا من أجل المجتمع، ولا من أجل عبد الجبار، بل خوفاً من حبها، حب لا يمكن أن يستمر. وقد انتهى. فكرت للحظة في قتله، قَتَل هو حبي، النزوع إلى الجريمة موجود في نفس كل واحد منا، ولكن حين لا يستطيع المرء أن يقتل أحداً، يقتل نفسه، أنا قتلت حبي، قتلت روضة حين صارحتها، كان يجب أن أبقى صامتاً، ولكن لا أحد يستطيع أيضاً أن يظل صامتاً، لا بد للسر أن يذاع. بقيت أشهراً أعيش على ذكراها، ولعلي ما أزال، ترددت عدة مرات، سرت إلى شقتها، وصلت إلى الحي، اقتربت من العمارة، وقفت في مدخل البناء، ولكن لم أصعد الدرج، كنت في كل مرة أصل إلى البناء، ولا أصعد الدرج، بعد ذلك نسيتها. ما رويت قصتها لأحد، لا أحد يمكن أن يصدقني، هي أنموذج فريد، لا مثيل له، لا يمكن أن يتكرر، ولا سيما في مجتمعنا، بل لا يمكن أن يصدق. أضعتها، أضعت حياتي. ثم فكرت، لا، ليس ذنبي أنا، وليس ذنبها هي. أنا أصدق كل ما قالت. عنها أشاع عبد القادر أنها عشيقته، هو لم يُلاحق، ولم يُحاسب، لأنه الرجل، لأنه المدير، لأن له علاقاته، لأن المجتمع يسمح للرجل بكل شيء، ولا يسمح للمرأة بشيء.

وأنا واحد من هذا المجتمع، خفت من عبد القادر، خفت من المجتمع، خفت من روضة، خفت من نفسي، هربت.

ولكن، في بعض الأحيان أشك في كلامها. هل هي رابعة العدوية؟

أحبك حبين حب الهوى　　　　وحباً لأنك أهل لذاكا

لا، لم تكن رابعة، وأنا اشك في قصة رابعة كلها.

❖

هذه آخر قصص حبي، بل هي أولها، ومن يومها قررت ألا أحب وألا أتزوج، ولكنني أحببت وتزوجت، وضاعت مني روضة. ليست آخر قصص حبي، بل هي آخر قصص قهر المدير.

ولكن هل كانت روضة صادقة؟ هل كانت بريئة؟ هل كان لها غرض عندي؟ أو نية سيئة؟ هل كانت خيطاً في شبكة العنكبوت الكبيرة؟ هل أرسلها المدير هشام

لتغرِّر بي؟ هي ستة أشهر فقط، منحتني فيها كل شيء، حقيقة، عقلها وقلبها وروحها، منحتني أيضاً جسدها. ماذا منحتها أنا؟ لا أعرف؟ ماذا أخذت هي؟ لا أعرف؟ هل حققت ذاتها بي؟ هل نسيت قهرها من خلالي؟ ولكن ماذا قدمت لها أنا؟ حتى كلمة حب لم أبح بها، إلا في لحظة الوداع، كم أنا أناني؟!.

لا يمكن أن أنسى أغنيتها، تغنّي لي مقطعاً منها، وأنا ممدَّد على الأريكة، رأسي في حجرها، وهي تداعب شعري، ثم ما تلبث أن تضع شريطاً في المسجل، لنستمع معاً إلى الأغنية:

حيّرت قلبي معاك.. وأنا بداري واخبي
قل لي اعمل إيه وياك.. ولا اعمل إيه ويا قلبي
بدي اشكي لك من نار حبي.. بدي احكي لك ع اللي في قلبي
وأقولك ع اللي سهرني.. وأقولك ع اللي بكاني
وأصوّر لك ضنى روحي.. وعزة نفسي منعاني
يا قاسي بص في عيني.. وشوف إيه انكتب فيها
دي نظرة شوق وحنيه .. ودي دمعة بداريها
وده خيال بين الأجفان.. فضل معاي الليل كله
سهرني بين فكر وأشجان.. وفات لي جوّه العين ظله
وبين شوقي وحرماني.. وحيرتي ويا كتماني
بدي اشكي لك من نار حبي.... بدي احكي لك ع اللي في قلبي
ياما ليالي أنا وخيالي ، أفضل أصبّر روحي بكلمة يوم قلتها لي
وبات أفكر .. في اللي جرى لك.... واللي جرى لي
وأقول ماشافش الحيرة.. عليّ لما با سلم
ولاشافش يوم الشوق.. في عينيّ راح يتكلم

وتغلق المسجل، ثم تكمل الأغنية بصوتها، وهو يتهدج يتقطع ألماً، أقبّلها، أرتشف دموعها، أضمها إلى صدري:

ح افضل أحبك من غير ما أقولك..إيه اللي حيّر أفكاري
لحدّ قلبك ما يوم يدلّك.. على هواي المدّاري
ولما يرحمني قلبك .. ويبان لعيني هواك
وتنادي ع اللي انشغل بك.. وروحي تسمع نداك
بدي اشكي لك من نار حبي

❖

مرّ على تلك الذكرى أكثر من أربعين عاماً، كنت يومها في الثانية والعشرين. بقيت أشهراً، بعدها، بل سنين، لا أستمع إلا إلى تلك الأغنية، ثم بتّ أهرب منها، أخشى الاستماع إليها، أخاف ذكراها، ثم نسيت ذلك كله، أو تناسيته، يبدو النسيان أحياناً نعمة، بل هو ضرورة، ولكن هل يمكن حقاً أن ننسى، هناك فرق بين أن نتذكر وأن نعيش على الذكرى.

❖

أذكر أنه بعد بضع سنين، ربما خمس أو عشر، كنت أتابع الأخبار في التلفاز، سمعت خبراً عن اختيار أمين عام لاتحاد المصارف العربية، اسمه عبد القادر إسماعيل، لا أعرف هل هو نفسه، هل هو من مصر، هل هو من سورية؟ لم أنتبه للخبر، ولم أحاول التأكد، ولعله مجرد تشابه في الأسماء، ولكن مع ذلك ليس من المستبعد أن يحتل من كان مثله مثل ذلك المنصب.

❖

ما كنت أود الحديث عنها، ولكن عندما ينقطع خيط العقد، لا بد من أن تنفرط كل الحبات. أتخيلها الآن في شقتها الصغيرة في الدور الخامس، وهي في ثياب بيض تتعبد الله. لعلها أغلقت النافذة المطلة على البرج، سدتها نهائياً، وعلقت فوقها سجادة صلاة فيها رسم يمثل الكعبة المشرفة. ربما فعلت ذلك، هي مجرد خاطرة، ولكن خواطرنا هي حياتنا.

جدتي، يرحمها الله، كانت تعلّق مثل هذه السجادة في غرفتها.

❖

أبواق السيارات ورائي تصم الآذان، موسيقا الحياة والواقع. الإشارة خضراء. أنطلق بسيارتي.

❖

لا أنسى المشهد الأخير:

ـ فقط، قل لي: أحبك.

أتناول يدها بين يدي، أقبل أطراف أناملها، ألفظ:

ـ أحبك.

أسحب يدي من يدها، أسحبها بهدوء، الأنامل تتباعد، تتباعد.

أهبط على الدرج.

الفصل الخامس

مع دلال...في شقتي

١٣. زجاجة العطر...والمنديل

في زيارتها الأخيرة لي أهدتني زجاجة عطر باريسية فاخرة، مرّ عليها ثلاثة أعوام، تقريباً، ما تزال محفوظة في الخزانة، لم أفتحها. ليتها أهدتني معها المنديل الحريري الأصفر الذي كانت تعقده حول عنقها. اليوم، قبل ذهابي إلى صلاة الجمعة، سوف أفتحها، وأرشّ منها على الجلابية البيضاء التي قررت أن أرتديها.

طارت كل الحمامات، لم يبق سوى حمامة بيضاء واحدة، سأستحثها على مغادرة القفص.

تذكرت نجوة ونوال وابنتها ليلى وروضة، بحت بأسمائهن جميعاً، بقيت دلال، لماذا لا أتحدث عنها؟ ما هن إلا أطياف مرت، لم أر منها إلا الظلال، وأنا مقيد إلى شقتي، المغارة.

❖

زجاج السيارة أمامي يشف عن تسريحة شعرها واللفائف المثبتة بعناية، ومنديل عنقها المعقود عند الطرف الأيمن، كأنني أراها أمامي الآن، كم كنت أتشهّى لو أفك ذلك المنديل ذات يوم.

❖

بعد يومين من آخر زياراتها لي، يرن جرس الباب، أفتحه، وإذا أبو محمود، يبادرني وكأنه يريد ألا يضيع منه شيء:

- أستاذ، أسرع، أسرع افتح التلفاز.

- ماذا جرى، ما الخبر؟

- السيدة، السيدة التي تزورك...

نفسه يتقطع، يلهث:

- أسرع إلى فتح التلفاز، لا أعرف، سمعت كلمة وزيرة، رأيتها في التلفاز.

- هل ذكروا اسمها.

- لم أسمع الخبر، رأيت صورتها.

- لعلها تشبهها.

- هي والله هي، أنا أعرفها.

❖

عند الساعة السادسة والنصف بالضبط، يرن جرس الباب، في الموعد بدقة تجيء، أفتح الباب، تملأني بحضورها، تحمل باقة زهر صغيرة، تناولني إياها وهي تحييني. شعر أشقر، مسرح بأناقة، على شكل لفائف متداخلة، ومثبتة بعناية، هي التسريحة التي تميزت بها، والتي لم تبدّلها في كل زياراتها لي، على مدى تسعة أشهر، منديل أصفر رقيق تلف به عنقها الأبيض الشفاف، كأنه البلور، تعقد المنديل بربطة كالوردة عند الجانب الأيمن.

أرحب بها، فتتقدم بكل ثقة، كأنها تعرفني منذ ألف عام، كأنها تعرف الشقة وهي على المخطط قبل بناء والدي العمارة كلها، تسير نحو هدفها باستقامة ودقة ووضوح، بثقة وثبات، عيناها زرقاوان، قليل من الكحل، قليل من الأزرق الشفاف فوق الجفنين، قليل من الأحمر الشفاف فوق الوجنتين، تتزين، وكأنها لا تتزين.

تتخذ مكانها في مقعد في صدر الغرفة، ظهرها إلى النافذة المطلة على الحديقة، النافذة أصبحت إطاراً لها، وشجيرات الورد والحمامات وراءها هي الخلفية، ألقت نظرة سريعة على الحديقة، من غير فضول، ولا تطلع، ثم اتخذت موضعها، وهي تقول:

ـ أهنئك بهذه الحديقة الجميلة.

ثم أخذت تتكلم بسرعة ورشاقة، والمقعد يحتويها، ناعمة، رشيقة، واثقة.

في الثلاثين، أو أكبر قليلاً، في منتصف عمري بالضبط.

❖

قبل أسبوع اتصلت بي، عرفتني على نفسها، تريد الاستعانة بي من أجل استكمال رسالتها للدكتوراه: "تطور تدريس الحقوق في سورية في النصف الثاني من القرن العشرين".

❖

ـ أنا على وشك الكتابة، جمعت المادة، صنفتها في بطاقات، راجعت طبعاً كل الكتب المؤلفة في هذا المجال، ولكن نصح لي الأستاذ المشرف بمقابلة خمسة حقوقيين، مجازين على مدى العقود الخمسة الأخيرة، بحيث أختار من كل عقد متخرجاً واحداً.

ـ مكتبتي كلها تحت تصرفك.

ـ أشكرك، فقط أود محاورتك حول التدريس والمناهج والعلاقة بين الزملاء في مرحلتك والعلاقة مع الأساتذة والمشكلات الامتحانية، هو حديث شفهي، سأدوّن بعض النقاط، ثم أصوغ الحوار في البيت، وأزورك، مرة ثانية، إذا سمحت لي، لأطلعك على النص المكتوب.

صمتُّ قليلاً، ثم قلت لها:

ـ أنـا أفضـل أن تعطـيني الأسـئلة مكتوبـة، وسـأجيبك عنهـا مكتوبـة أيضـاً، وستكون مطبوعة على الحاسوب.

❖

في الزيـارة الثانيـة قـدمت لهـا نـص الحـوار مطبوعـاً علـى الـورق، بلـغ نحـو عشـر صفحات، تناولتها بفرح، ألقت نظرة عليها، ثم قالت:

. سأقرؤها بعناية في البيت، ولكن هل تسمح لي في الزيارة القادمة أن أحضر مخزن ملفات لتنزيل الملف من حاسوبك، بدلاً من أن أقوم بطباعة النص مرة ثانية.

ـ بكل سرور.

❖

تكررت الزيارات، أناقتها هي هي، ثقتها بنفسها هي هي، تسريحة شعرها هـي هـي، ولكـن في كـل مـرة تـأتي بفسـتان جديـد، فسـاتينها زاهيـة الألـوان، فاتحـة، لا ترتدي بنطلوناً أو قميصاً، قدّرت فيها هذا الذوق، كأنها تريد تأكيد أنوثتها، أكثـر السيدات عـزفن الآن عـن ارتـداء الفسـتان، تتصـرف بعفويـة، جـاءتني مـرة في الشـتاء بمعطف أبيض، أنيق جداً، فور دخولها خلعته بعفوية، وكأنها في بيتها، تقعد أمامي في احترام، ما وضعت قط رجلاً فوق رجل، قد ينحسر الفستان قليلاً عن ركبتها، فترده بعفوية وهدوء، من غير ارتباك، تمد لي يدها مودعة عند الباب، فأصافحها، أناملها بضة ناعمة.

أصب لها القهوة المرّة، فتطلب ملء الفنجان إلى حافته، تضعه على منصة صغيرة إلى جانبها، ثم ترشفه بهدوء. في كل مرة أقدّم لها طبقاً فيه فواكه، أو حلوى، تعتذر، لم تذق شيئاً سوى القهوة.

في الغرفة يظل دائماً شذى عطرها. في المقعد الذي تتخذه دائماً لنفسها، يظل طيفها. في أصابعي يظل دفء أناملها.

❖

تزورني في الأسبوع مرة واحدة، أو في كل عشرة أيام، وفق موعد مسبق بالهاتف، تحدثني عما أنجزت، تستشيرني، نتحاور، أقترح عليها بعض الإضافات، أو التعديل، بعثت النشاط في ذاكرتي الحقوقية، بل بعثت الحياة في حياتي، بعد وفاة نوال زوجتي.

لا تطول زيارتها أكثر من نصف ساعة.

❖

في إحدى الزيارات دخلت تحمل ملفاً سميكاً، اتخذت موضعها أمام النافذة، هو الموضع الذي لم تغيّره قطّ، أصبح ركنها المألوف.

قالت لي:

ـ أنهيت الرسالة، ثلاث سنوات وأنا أعمل فيها، ولكن أجد صعوبة كبيرة في كتابة المقدمة والخاتمة، لا أعرف ماذا أكتب، يبدو أنني وصلت إلى حالة الإشباع، ما عدت أستطيع كتابة شيء.

ـ خذي إجازة من العمل في الرسالة أسبوعاً واحداً فقط، اقرئي رواية، ابتعدي كلياً عن جو الرسالة، لتجدي نفسك قد اختمرت الأفكار في ذهنك، بعد ذلك يمكنك الكتابة بعفوية وبساطة.

أطرقتْ صامتة، ثم نهضتْ، مشتْ إلى الباب بخطا هادئة، عند الباب التفتت، مدت يدها إلي مودعة، ويدها في يدي، سألت:

ـ هل يمكن أن تقرأ الرسالة؟ هي كاملة، فقط لتساعدني على كتابة المقدمة والخاتمة، ولعلك تصحّح ما فيها من أخطاء لغوية، لا شك في أن لغتك أفضل من لغتي.

❖

أمام هذا العرض الهادئ اللطيف، من سيدة في هذا اللطف، لا يمكن إلا القبول.

❖

ـ أرجو أن تعذريني، يمكن أن نتحاور، ولكن القراءة صعبة، مزاجي لا يساعدني على القراءة.

ـ أنا آسفة، أرجو ألا أكون قد أحرجتك.

ـ في الواقع أنا من يجب أن يعتذر إليك.

ـ أنا أشكر لك تعاونك معي، وسأزورك.

❖

أي حمق هذا؟ لمتُ نفسي كثيراً، ثلاثمئة صفحة، يمكن قراءتها في ثلاثة أيام، وأنت متفرغ، لا عمل عندك ولا شغل، تقعد في الحديقة، أمام الحمامات، تتسلى بقراءتها، تراها بين السطور، تعيش معها. هو الحمق بعينه. أنا أعرف، أمام ثقتها بنفسها، تريد أن تكون أنت واثقاً بنفسك، لذلك ترفض أن تقرأ. فرضت عليك احترامها ووقارها، وأنت تريد أن تفرض عليها احترامك ووقارك. ولكن هذا ليس تعامل رجل مع امرأة. أنت كنت جافاً معها وخشناً، وهي كانت لطيفة ورقيقة، مثلتَ معها دور الأستاذ، حتى الأستاذ يحنّ قلبه، ويعطف، يُسْمِع تلميذته كلمة حلوة، كلمة إعجاب، نحن نعيش بالعاطفة، لا بالعقل، وأنت عشت معها بالعقل. لم تمارس المحاماة ولا القضاء، ولكنك معها لبست ثوب المحاماة، بل لبست ثوب القضاء. لو أنها منحتك شيئاً من متعة لكنت استجبت، كنت قرأت الرسالة كلها، بل كنت كتبت الرسالة.

ولكن لا، هذا غير صحيح، لو تبذلت واستهترت لكنت اعتذرت عن استقبالها في بيتك، ومثلها لا يفعل.

❖

ويرن جرس الهاتف:

- هل يمكن أن أزورك؟

- طبعاً بكل سرور.

- متى؟

- أنا لا التزام عندي ولا مواعيد، يمكنك اليوم، غداً، بعد غد، اختاري بنفسك الوقت الذي يناسبك.

❖

تتخذ موضعها نفسه، ترشف قهوتها:

- الحمد لله، أنجزت المقدمة والخاتمة، عملت بنصيحتك، منحت نفسي إجازة من العمل في الرسالة أربعة أيام فقط، نسيتها كلياً، ثم انثالت الأفكار على ذهني، وبدأت الكتابة، أنا آسفة أحرجتك في الزيارة السابقة.

لا أعرف كيف أعتذر أنا إليها، أقول لها:

- يمكنك أن تحدثيني عما كتبت في المقدمة والخاتمة، وقد أقترح عليك بعض الإضافات.

- لا، لن أتعبك، هذه زيارة ودّيّة، زياراتي السابقة زيارات عمل، يجب أن أظل وفية لك، هذا إذا سمحتَ أنت لي، لا يجوز أن أنقطع عن زيارتك.

- بكل سرور، يمكن أن تزوريني في أي وقت.

- سأظل أزورك، إلا إذا تغيرت ظروف عملي، أو عمل زوجي، أنا مصممة على فعل شيء بعد نيلي الدكتوراه.

❖

طوال تسعة أشهر من الزيارات الأسبوعية تقريباً، لم نتكلم في أي موضوع خاص، لم أسألها، ولم تسألني، لا أعرف شيئاً عنها، ولا تعرف شيئاً عني، زيارتها كانت لا تتجاوز نصف الساعة. لم أسألها لا عن عملها، ولا عن زوجها، ولم تسألني.

لم تتحرك في الشقة، ولم تفكر في التجوال في الحديقة، وأنا ما دعوتها، طريقها خط مستقيم من باب الشقة إلى موضعها في المقعد أمام النافذة. وغير القهوة لا تتناول، مع أنني في كل زيارة أضع أمامها طبقاً فيه بعض أصناف الفاكهة، أو الحلوى.

لاحظت فقط أنها قبل نهوضها للخروج تستل الهاتف الجوال من حقيبتها، تضغط على زر الإرسال مرة واحدة، ترسل إشارة، ثم تغلقه، وتنهض.

❖

دعتني إلى حضور مناقشة رسالة الدكتوراه، جاءت بنفسها، حملت إلي بطاقة مذهّبة، تتضمن الدعوة، وقدمت لي معها وردة بيضاء، اعتذرت إليها مباشرة:

ـ اعذريني، أعرف كيف تجري مناقشات رسائل الماجستير والدكتوراه، لا تخلو من قسوة على الطالب، ولا أستطيع أن أرى مثل هذه القسوة توجه إليك، أبارك لك سلفاً.

ـ هذا أمر عادي، بل مألوف عندنا، وستراني أرد رداً علمياً هادئاً عندما يكون الرد ضروريا.

ـ أتمنى أن يكون حضور مناقشة الرسائل مقتصراً على الأساتذة الجامعيين وطلاب الدراسات العليا.

وأصمت ثم أضيف:

ـ كلية الحقوق هي كليتي، وفيها تخرجت، والأساتذة فيها هم أساتذتي، وإن كان فيها جيل جديد من الأساتذة لا أعرفهم، ولكن أنا بعيد عن هذه الأجواء، وأشعر بالغربة، وأنا في شبه عزلة عن العالم، لا أزور أحداً، ولا أحد يزورني.

❖

أرسلت إليها باقة ورد بيضاء، إلى كلية الحقوق، إلى المدرج الذي ستجري فيه المناقشة، ولم أحضر.

❖

لا أعرف كيف قلت لها ذات يوم، وأنا أرى من خلال النافذة المطر ينهمر غزيراً:

ـ هل تسمحين لي أن أوصلك بسيارتي، من الصعب في هذا الجو تأمين سيارة أجرة.

ـ أشكرك، السائق في السيارة ينتظرني.

ثم استلت الهاتف الجوال من حقيبتها، وأرسلت إشارة واحدة، ثم نهضت معتذرة.

قدرت أنها تعمل في وظيفة مهمة، وأنها تشغل منصباً مهماً.

❖

أقف أمام النافذة، أطل على الحديقة، الحمامات البيض في القفص تزقو، تتقافز، تطير، تود لو تحلّق، ولكن أجنحتها ضعفت، هي أسيرة القفص.

جبان أنا، متردّد، أنا نادم.

لماذا لا أحضر؟ لماذا لا أشاركها المناسبة؟ لماذا لا أدعوها إلى الغداء؟ لماذا لا أسمعها كلمة حلوة؟ دوافع ورغبات عندي تتقافز، تزقو، تود لو تطير، تود لو تحلّق.

غداً سوف تزورني من غير شك، بعد نيل الدكتوراه. لماذا لا آخذ يدها بين يدي الاثنتين، وأطبع قبلة على الوجنتين، تهنئة، للتهنئة فقط، لا أكثر، مثلما يقبل الصديق صديقه على الوجنتين إذا ما عاد من السفر؟

❖

تتصل بي كعادتها، تأخذ موعداً. تأخذ موضعها في الركن نفسه، وهي ترتدي فستاناً أبيض فيه زهرات فاتحة اللون، تنثر الربيع، الحمامات البيض وراءها في القفص تتقافز، تطير. أقدم لها طبق حلوى.

ـ أشكرك، قهوتك متميزة، لا يمكن أن أتناول شيئاً قبلها ولا بعدها، هي وحدها تكفيني.

❖

وأنا ثوبك الأبيض وحده يكفيني.

❖

تنهض، تفتح حقيبة يدها، تستل بطاقة ووردة بيضاء، وهي تقول:

ـ يسرني أن أدعوك إلى العشاء بعد غد في مطعم الأسطورة، الساعة التاسعة، بمناسبة نيلي الدكتوراه، هناك عدد قليل من المدعوين، أنت أولهم، ستتعرف إلى أبي وزوجي.

عند الباب، تمد يدها مودعة، أصافحها، فتهمس:

ـ أرجو حضورك.

❖

لو كانت الدعوة لي وحدي كنت لبّيت، ولكن، وربما، حتى لو كانت لي وحدي لما جئت.

❖

في مساء اليوم التالي للدعوة تتصل، هل تسمح لي بزيارتك:

ـ بكل سرور.

كل زياراتها لي بعيد العصر، عند الأصيل، عند السادسة، تدخل هذه المرة في ثوب أصفر فاقع، فيه زهرات بيض كبيرة، تلف جيدها بمنديل أصفر اللون شفاف.

❖

أنا أعرف، أنت غاضبة مني، لأنني لم أحضر أمس دعوة العشاء. ولكن قلبك أبيض مثل هذه الزهرات.

❖

تمضي إلى غرفة الضيوف، وهي تحمل ما أقدِّر أنه نسخة من رسالة الدكتوراه، ملفوفة بورق فاخر، تضعه على المقعد، حيث كانت تقعد دائماً، تقف إلى جوار النافذة، تطل على الحديقة، أقف قبالتها.

تلتفت، ترى في الطبق فاكهة، تتكلم بشيء من العصبية:

ـ دعوتك، فما لبيت، أنت ترفض أن تأكل من طعامي، أنا هذه المرة سوف آكل من طعامك، حتى من غير أن تدعوني.

تمد يدها إلى الطبق، تتناول تفاحة، أناولها من الطبق سكيناً، فتقول لي:

ـ اسمح لي بتناولها على طريقتي.

تحملها، تتأملها بعينيها الزرقاوين، تدني بها من فمها بهدوء، تقضمها بصمت، وهي ترقب الحمامات البيض، تفتح النافذة، ثم تلتفت إلي لتقول:

ـ لا يجوز أن ندخل السكين في قلب التفاحة، هي كائن رقيق لطيف، من الأجمل أن نمسكها هكذا بالأنامل، نحملها بقدسية، ندنيها من الفم، ثم نتذوق عصارتها، ومن الأجمل أن نتناولها في الحديقة تحت السماء، بجوار هذه الحمامات، لا داخل الغرف.

ـ بكل سرور، تفضلي إلى الحديقة، من زمان كنت أودّ دعوتك إلى حديقتي.

❖

يا إلهي، هي طريقتي نفسها، أنا لا أحز التفاحة بالسكين، أنا أتناولها بأصابعي، أقضمها بفمي، أتذوق قشرها وعصارتها، حتى بذورها السود لا أرمي بها، أقضمها، البذور هي القلب منها، وأنا أتركها تمضي إلى القلب مني.

❖

نخرج إلى الحديقة. تفك المنديل الأصفر عن جيدها الأبيض الشفاف، تودعه في حقيبة يدها، تلتفت، تقضم التفاحة، وهي تتكلم:

ـ أنا أحترم موقفك، وأقدر ظروفك، وأعرف الأسباب في عزلتك عن العالم، وانسحابك من الحياة، أقدّر ذلك كله، الأستاذ أكرم هو الذي دلّني عليك، هو الذي حدثني عنك، هو يقدر شخصك، ويحترم صدقك ونزاهتك، هو يكنّ لك الود كل الود، وحدثني عن انقطاعك عنه بعد التقاعد، قال لي: يجب أن تفهمي الأستاذ بكري جيداً، وأن تقدِّريه، هذا ليس جفاء منه ولا قسوة، وإنما هو موقف، واعذرني لهذه المصارحة.

تقف أمام قفص الحمامات البيض، تتكلم ممازحة:

ـ هل يمكن أن تهديني زوجين من هذه الحمامات.

ـ هي لك كلها.

ـ ولكن ليس عندي قفص يتسع لها، ولا لزوجين منها.

تعاود المشي، أسير إلى جانبها.

ـ اعذرني إذا قلت لك إن كلام الأستاذ أكرم قد أثار فضولي، فقررت أن أكسر العزلة التي أنت فيها، سامحني، ولكن، بعد تعرفي إليك عن كثب، وبعد رؤيتي مواقفك الثابتة، أقول لك: أهنئك، هذه هي الحياة الحق، أنت على صواب، أنت في نجوة من الزيف والرياء والكذب.

❖

مكره أخاك، يا أختي، لا بطل.

نجوة، هل ذكرت نجوة؟ أيضاً نجوة غابت، وأنت ستغيبين مثلها، ظل عابر، ما نحن إلا ظلال. لا أعرف هل أنا على صواب حقيقة؟ لعلي أريد أن أنالك، أن أمزق هذا الثوب الأبيض، أن أذبح كل الحمامات البيض، يكفي، لقد تعبت من العزلة، تعبت، ليتني أحز عنق هشام المدير، هذه ليست بحياة، هي انتحار، أنت لا تعرفين، أنا هنا وحدي، لا أحد يزورني، ولا أزور أحداً، بعض الناس يقتلون جسدهم، ينتحرون، ولكن أنا قتلت نفسي، قتلت روحي، أنا فرد ضائع، هل أنا مقتنع حقيقة بحياتي؟ لا أعرف. لكن، أنا اخترت هذا، فهذه هي إذن حياتي.

❖

ما تزال تقضم التفاحة بهدوء، وعلى مهل، تستمتع بها، أحس بها تقضم البذور مثلي، تستل من فمها بأطراف أناملها بذرة، ثم تلتفت إلي سائلة:

ـ هل تسمح لي بزرع هذه البذرة هنا في الحديقة، هي خرجت من الأرض، وإليها يجب أن تعود، لعلها تنبت وتثمر.

❖

أنت لم تغرسيها في الأرض، أنت غرستها في القلب.

❖

نغادر الحديقة، نعود إلى الداخل، تتوجه إلى الباب، وهي تتكلم:

ـ في مدرج الكلية كل الحاضرين أشباح، وجوه لا ملامح لها، كنت أفتقدك، كل من حضر كانوا من أصحاب المنفعة والمصلحة، عدا أبي وزوجي، كنت أفتقدك، أبحث عن وجهك بين الوجوه، امتلأ مدرج الكلية بباقات الورود، باقتك وحدها بيضاء خالصة، وحدها المميزة، مثل قهوتك، تخيلت الحمامات البيض ترف حول باقة الورد البيضاء التي أرسلتها إلي، أنا أشكرك. أنا أقدر أنك طوال تسعة أشهر كنت تستقبلني بمودة وكرم، ولم تسأل مرة من أكون؟ ولم تحد مرة واحدة عن

الموضوع الذي جئتك من أجله، ولكن دعوة العشاء كانت مختلفة، ليس فيها غير أبي وزوجي، والأستاذ المشرف، والأستاذ أكرم، هو صديق أبي.

ـ هل سألك عني الأستاذ أكرم.

ـ لم يسأل، لم أخبر أحداً أنني دعوتك، حتى لا أشعر بالخيبة، كنت أعرف أنك لن تأتي.

❖

عند الباب تعقد منديلها الأصفر حول عنقها، تعقده بعفوية ورشاقة، كأنني أتوقع أن تقول لي ساعدني على عقده، أود لو أن أناملي تمس عنقها، ولكنها تعقده وحدها برشاقة وهي تتكلم:

ـ أنا هنا في حلب معاونة مدير المركز الفرعي للتنمية الوطنية، تسلمت هذا المنصب بعد نيلي الماجستير، ومنذئذ والمدير يعاندني ولا يسند إلي أي عمل، يريد تجميدي، يتهمني بالتقصير في العمل، يخشى أن أزيحه عن منصبه، وفي الليلة السابقة على مناقشة الرسالة أشاع خبراً يؤكد فيه تأجيل المناقشة، بل إيقافها، بدعوى أن الرسالة كلها مسروقة، حتى إن بعض المدعوين لم يحضروا.

يتقطع صوتها، ترسل زفرة، الكلمات تخرج من بين أسنانها:

ـ ولكن أنا سأتصرف.

تصمت، تبتسم، تهمس:

ـ لا أظن أنك لم تحضر لأنه وصلك مثل ذلك الخبر.

❖

بعد مغادرتها أسرع إلى اللفافة، أفتحها، وإذا هي رسالتها للدكتوراه، وفي صفحة الإهداء ذكرت اسمي بين اسم أبيها وزوجها.

❖

حمامة تحط إلى جوار قفص الحمامات، تحوم حوله، كأنها تود الدخول إليه، تطير.

❖

يدخل أبو محمود، وقد أحضر لي بعض الفواكه، وهو يقول:

ـ السيدة التي تزورك في كل يومين أو ثلاثة؟!

ـ نعم، ماذا بها؟

ـ هناك سيارة دائماً تنتظرها أمام باب العمارة.

ـ أعرف هذا.

ـ وهناك رجل، عدا السائق، ينتظرها أمام السيارة، وفور خروجها من باب العمارة، يسرع إلى فتح الباب لها.

ـ أعرف ذلك، هي موظفة في مركز كبير.

يتردد، يهم بالخروج، ولكنه يلتفت، ليقول:

ـ هل يمكن أن تحدثها، لتساعدني على توظيف أحد أولادي؟

أصمت، يحس بأنني غير مرتاح إلى طلبه:

ـ اعذرني، أرجو ألا أكون أزعجتك بطلبي، ولكن صدقني الحاجة هي اضطرتني إلى هذه الفكرة.

ـ تعرفني يا أبو محمود حق المعرفة.

ـ أنا آسف.

❖

مرّ أسبوعان لم تزرني فيهما. لا أظن أنها نسيتني، لا شك في أنها شغلت.

عند الحادية عشرة صباحاً يرن جرس الهاتف، يأتيني صوتها:

ـ هل يمكن أن أزورك بعد ربع ساعة زيارة سريعة.

❖

من عادتها أن تأخذ موعد الزيارة قبل يومين أو ثلاثة، وزياراتها لي دائماً في الأصيل، في نحو السادسة، هذه زيارة مختلفة، هي زيارة صباحية.

تأخذ موضعها أمام النافذة، الحديقة وراءها متألقة، الحمامات البيض تتطاير تتقافز. فستانها أبيض، زهرات بيض كبيرة من خيط مختلف تزينه. تستل من حقيبة يدها لفافة، تقدمها إلي وهي تقول:

ـ هذه زجاجة عطر، هدية لك، أنا منطلقة الآن إلى العاصمة، لأتسلّم منصبي الجديد، المدير العام لمركز التنمية في العاصمة، لن أنساك.

أقدم لها طبقاً فيه حلوى، فتأخذ قطعة واحدة، تضعها في فمها، تمضغها بأناقة، وفمها مطبق، تتكلم بلطف:

ـ هل تسمح لي أن أعرض عليك فكرة؟.

ـ تفضلي.

ـ أفكر في تعيينك مستشاراً في مركز التنمية للشؤون الحقوقية، تبقى هنا في شقتك بحلب، وتتقاضى راتباً جيداً، وتوافينا بتقاريرك العلمية حول شؤون القضاء.

ـ أشكرك، أنا من زمان انتهيت، أنا أعيش هنا في عزلة، في توحد مع ذاتي، لست في حاجة مادية، وعلى المستوى الفكري والاجتماعي لا نشاط لي، أنا أشكرك.

❖

أستأذنها لثوان، أغيب في المطبخ، ثم أرجع، أحمل لها دلة قهوة مرّة فضية جديدة، كأنها ديك يرفع رأسه يؤذن للفجر، أقول لها:

ـ أرجو قبول هذه الهدية المتواضعة للذكرى.

تفاجأ بالهدية، تهتف بحماسة:

ـ أوه، أشكرك، هدية رائعة حقيقة، سأضعها على مكتبي، لن أستعملها لتقديم القهوة، سأتركها للزينة، شكراً لك، لن أنسى قهوتك.

❖

تشرب فنجان قهوة، ثم تنهض.

ـ أرجو أن تعذرني، السائق في الباب ينتظر.

ـ والحمامات البيض؟ هل أهديك زوجين؟

ـ هما في القلب، يرفرفان.

❖

تضع قدمها خارج الباب، تخطو خطوة، ثم سرعان ما ترجع، تفتح حقيبة يدها، تناولني ثلاث بطاقات:

ـ هذه بطاقات باسمي واسم زوجي ووالدي، إذا احتجت إلى شيء فاتصل بنا جميعاً، ما يزال أبي في وافر نشاطه، وهو يعمل في المشفى، إذا احتجت إلى أي شيء، فاتصل به وبي، وأرجو ألا تحتاج، وأنا أعرف، حتى لو احتجت لن تتصل، ولكن أرجو أن تتصل، لا أقول الوداع، سنلتقي.

❖

كم أود لوطبعت قبلة على الوجنة.

❖

هي لا تعرف، بلغت الثانية والستين، والآن أنا في الخامسة والستين، ولم أحتج إلى مشفى ولا طبيب، لم أحلل دمي، ولا أعرف زمرته، ولا نسبة السكر فيه ولا الكولسترول، في الشتاء ينتابني بعض البرد، فأتناول الليمون، والمغلي من أنواع شتى من الزهور والأعشاب. وبين حين وآخر يشتد الألم في الكولون فلا أرجع الطبيب، أداوي نفسي بنفسي بالحمية والأعشاب.

ومرت تسعة أشهر ولم أتصل بها، هي التي كانت دائماً تتصل.

دلال تغادر الشقة، تصعد الدرج، تتقافز فوقه بفستانها الأبيض وزهراته البيض، حمامة تحلّق.

❖

بعد يوم أو يومين. يرن جرس الباب، أفتحه، إذا أبو محمود، يبادرني وكأنه يريد ألا يضيع منه شيء:

- أستاذ، أسرع، أسرع افتح التلفاز.

- ماذا جرى، ما الخبر؟

- السيدة، السيدة التي تزورك...

نفسه يتقطع، يلهث:

- أسرع إلى فتح التلفاز، لا أعرف، سمعت كلمة وزيرة.

- هل ذكروا اسمها؟.

- لم أسمع الخبر، رأيت صورتها.

- لعلها تشبهها.

- هي والله هي، أنا أعرفها.

أضحك، أقول له:

- أعرف، ليست وزيرة، إنما مديرة لمركز التنمية الوطنية.

- آن الأوان لتكلمها من أجل أولادي، كلمها من أجلك، لعلها تدبر لك ولأولادي أي عمل، لا شيء يمشي من غير واسطة.

❖

مرت أشهر ودلال لم تتصل، ولم تسأل، أتوقع ذلك، هو مريح بالنسبة إليّ.

❖

ويرن جرس الهاتف، بعد أشهر، ربما خمسة أو ستة:

- أنا مدير قسم التحقيق في الهيئة العامة للرقابة والتفتيش.

- أهلاً وسهلاً.

- أنا أعرفك وأقدِّرك شخصياً، أنا حقوقي، وكان المقرر أن تزورنا في مقر الهيئة، ولكن أنا شخصياً اقترحت الاكتفاء بالاتصال بك هاتفياً، وسوف أعطيك ملخصاً سريعاً عن الموضوع.

- تفضل.

- مدير المركز الفرعي للتنمية بحلب، وهو مقال عن العمل كلياً، وليس عن المنصب فقط، تمت إحالته على التقاعد قبل بلوغه سن التقاعد، يرفع دعوى على السيدة دلال، المدير العام لمركز التنمية الوطني، يتهمها فيها بأن رسالتها للدكتوراه ليست من تأليفها، وقد أورد في الدعوة أسماء عدة أشخاص ممن يتهمهم بمساعدتها على كتابة الرسالة، ومن بينهم اسمك، وأنا أعتذر إليك، فقط أرجو أن أعرف منك، هل ساعدتها على كتابة الرسالة؟ وأود أن أصارحك بأننا اتصلنا بها هاتفياً أيضاً

وحققنا معها، وعندنا كل إجاباتها، وهي مسجلة، وستكون إجاباتك مسجلة، وأنت حقوقي، ومن حقك أن توكل محامياً، ولا تجيب، وأرجو أن تعذرنا، لم نرد إتعابك بزيارتنا.

وأجيبه على الفور:

ـ أنا سأجيبك، ولست بحاجة إلى محام، فأنا شاهد، ولست بمتهم، نعم، زارتني وأجرت حواراً معي، اقترحت أن تستمع إلي وتدون الأجوبة، ثم تقوم بصياغتها وطباعتها، أنا اقترحت عليها أن تعطيني الأسئلة، لأكتب الجواب بنفسي، أعطيتها أجوبتي مطبوعة.

يصمت، ثم يسأل:

ـ هل طلبت منك أي مساعدة؟ وأذكّرك بأنها ذكرت كل شيء.

ـ طلبت مني قراءة الرسالة وتصحيحها لغوياً، ومساعدتها على كتابة المقدمة والخاتمة، ولكنني اعتذرت.

ـ هل تتوقع أن تكون قد طلبت من أحد سواك مثل هذا الطلب؟

ـ لا أعرف.

ـ من دلّها عليك؟ وما الهدف من زيارتك؟

ـ أخبرتني أن الأستاذ أكرم، مدير مكتب الرصد والمتابعة في مؤسسة البريد، هو الذي دلها عليّ، وهو حقوقي أيضاً، وكانت غايتها مقابلة بعض الحقوقيين وفق توجيهات أستاذها المشرف.

ـ هل كان عندها غرض آخر.

ـ لا يبدو أن هناك أي غرض آخر.

ـ نعرفك رجلاً مستقيماً وشريفاً، أنا أعرفك شخصياً، وهكذا شهد أهل الحي، وهكذا كانت شهادة حارس العمارة عندكم أبو محمود، وأنا أصارحك، فهل تظن أنها تعمدت التعرف إليك وزيارتك كي تكون شاهداً في المستقبل على براءتها، نظراً لحسن سمعتك.

ـ هذا سؤال يتعلق بالنوايا، والله وحده الذي يعلم بالنوايا.

ـ أشكرك أستاذ بكري، أنا رجب، زميلك، أنا أعرفك، وأنت لا تعرفني، أنت كنت في السنة الرابعة، وأنا كنت في السنة الأولى، أعرفك من الطلاب المجدّين والجادين، واعذرني مرة ثانية.

❖

آه لو تسألني عن نيتي أنا، والحمد لله أنها لاتفوح.

❖

تأبى أن تغرس السكين في قلب التفاحة، ولكنها تغرس الشوكة والسكين في ظهر الرجل، هل يعقل هذا؟ لا أكاد أصدق؟! من كانت في مثل جمالها لا تفعل.

وهل يعقل أن تكون رسالتها مسروقة أو يكون أحد ما قد كتبها لها؟ وكيف استطاعت الوصول بعد أقل من ثلاثة أشهر إلى منصب المدير العام لمركز التنمية؟.

❖

أعود إلى رسالتها للدكتوراه، أقرأ عنوان الرسالة، اسمها، اسم المشرف، أفتح الرسالة، أقرأ صفحة الإهداء:

إلى والدي الطبيب الجراح اللواء المتقاعد الدكتور حسّان

إلى أبي الروحي الحقوقي المتقاعد الأستاذ بكري

إلى زوجي العقيد الركن عماد

❖

مر شهر، شهران، ثلاثة، مرّ عام، مرّ عامان، دلال لم تتصل. لم أعرف عنها أي شيء. لم أسأل، لم أحاول المعرفة. لعلي لا أريد أن أعرف. أعترف، أنا جبان، أناني، سلبي، لا أحب المغامرة.

❖

لا بد من الاعتراف. مرة واحدة فقط زارتني من غير موعد، كانت زيارة وحيدة، غريبة، مفاجئة، لم تتكرر. قرع الباب، أو لعله لم يقرع، ما عدت أتذكر بالضبط، فتحت الباب، وإذا هي أمامي، دخلت على الفور، وهي تشير إلى المنديل حول عنقها، من غير أن تتكلم، كأنها تختنق، كأنها لم تستطع فك العقدة، مددت أصابعي إلى المنديل، بدأت معالجة العقدة، أحاول فكها، عنقها بض، ناعم، أبيض شفاف كالبلور، فككت العقدة، أطبقت شفتي على عنقها، ألثمه، أرشفه، أكاد أغرس فيه أنيابي، يكاد الدم ينبثق من العنق، كالغزال يطبق الأسد فكيه على عنقه فيسيل الدم الأحمر على الثلج الأبيض، ألقت بنفسها بين يدي، كأنما أغمي عليها، حملتها بين يدي، لا أعرف كيف حملتها، وأنا الشيخ العجوز، ومضيت بها إلى الداخل، ولكن أحسست فجأة بحركة ورائي، فتح الباب، وأطلت جدتي العجوز بوجهها الأبيض النقي، وثوبها الأبيض الفضفاض.

وأستيقظ، ولا جدة ولا دلال. بل تبقى الجدة، وتغيب دلال.

❖

دلال غابت عن حياتي. مرت وغابت. لم أعرفها، كأني لم أر منها سوى ظلها العابر، وأنا هنا مقيد إلى مغارتي.

❖

دلال تغادر الشقة، تصعد الدرج، تتقافز فوقه بفستانها الأبيض وزهراته البيض، حمامة تحلّق. طارت دلال، حلقت بعيداً بعيداً، وزجاجة عطرها في الخزانة ما تزال مختومة، لم تفتح. وهبط عليّ هشام الصغير، هشام المحاسب، وسقطت على حديقتي فردة حذائه السوداء.

❖

فور وصولي إلى الشقة سوف أفتح الزجاجة، أنشر العطر.

ليتها أهدتني مع الزجاجة منديلها الأصفر. أشم شذاه، أو أشنق نفسي به.

❖

زجاج السيارة أمامي ما يزال يشف عن دلال، وأنا أنعطف إلى الشارع الذي فيه شقتي. المسجل في السيارة ما يزال يبث صوت الشيخ وهو يتلو آيات من القرآن الكريم: "رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا".

❖

دخلت مرة إلى غرفة المراقبة في الفندق، فرأيت عشر شاشات ترصد المدخل والممرات والأدراج والمصاعد والشرفات والقاعات والمطاعم، كلها تتحرك وتضج بالحياة، وعامل واحد أمامها يتابعها.

أنا أتابع عشرين شاشة بل ثلاثين، ليلى وهشام ونوال وأكرم والعرقوب والبريد والشارع أمامي والسيارت والشيخ ما يزال يتلو آيات من الذكر الحكيم وأنا ما أزال أقود في الطريق إلى الشقة.

❖

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦)

الفصل السادس
أمام باب العمارة

١٤. سيارة إسعاف بيضاء

أدخل بسيارتي في الشارع المؤدِّي إلى الشقة، فأجد ازدحاماً أمام باب العمارة، وثمة سيارة إسعاف بيضاء. أهبط من سيارتي، أسرع، على الرصيف، أستوقف رجلاً أسأله، فيقول:

- رجل في العمارة ذبح زوجته.

أقترب، يصادفني رجل في الحي يعرفني يقول لي:

- يقال:جارك هشام شنق نفسه.

أبو محمود الحارس العجوز يقول لي:

- والله لا نعرف بالضبط، شنق نفسه، أو ذبح زوجته،لا نعرف.

أمام باب العمارة يستوقني شرطي وهو يقول:

- ممنوع الدخول، وممنوع الخروج.

- أنا من سكان العمارة، أنا جاره.

- الكل، حتى جيرانه، غير مسموح.

أؤكد له:

- أنا كنت عنده قبل عشر دقائق، ابنته كانت معي، وأعرف كل شيء، أنا مستعد لأشهد على كل شيء.

يشير إلى شرطي، ويقول له:

- هذا جاره يعرف كل شيء ومستعد للشهادة، ادخل معه، ليقابل الضابط.

❖

هذا هو إذن سبب إرساله البنت مع جدتها، كان يبيِّت شيئاً، كان يريد إرسال ابنته إلى عمتها "حياة"، ليضمن لها هناك الحياة، وكان يريد إرسال زوجته، حقيقة الجدة والحفيدة هما الحياة.

زوجته كشفته، عرَّته أمامنا، لم يتكلم، ولكن لا أتوقع أن يكون قتل زوجته، هو يحبّها، وهو لا يقدر على قتل بعوضة، الأرجح أن يكون شنق نفسه، أو هذا ما أرجوه، من هي مثل سناء زوجته لا يجوز أن تموت، وكذلك من هي مثل زوجتي نوال، ولكن نوال ماتت، ليمت هشام، ليمت ألف هشام.

ليمت كل الذكور، ولتبق المرأة، صانعة الحياة.

❖

كان أنا من يجب أن يموت، لا هو، أنا الشيخ العجوز، يبدو قدري أن أعيش بعده لأروي قصته، وقدره أن يموت، لا يمكن أن يعيش حقيقة، بين المدير، المطرقة، والزوجة، السندان، وأبقى لأروي قصته. ولتعذرني زوجته. لا أنسى هاملت، وهو يوصي صديقه هوراشيو أن يروي قصته.

❖

ومرة أخرى يطرح السؤال: هل اختار بحرية نهايته؟

يبدو ليس من حق الإنسان أن يختار نهايته، ولا نهاية غيره.

مهما كانت الأسباب كبيرة لا يبدو الانتحار مبرَّراً، على الإطلاق، الحياة أغلى وأثمن، وليس من حق المرء أن يضع نهاية لحياته بيده، بل لا يحق لأحد أن ينهي حياة أحد، إلا في حالة دفاع عن النفس واضحة ومشروعة، أو دفاع واضح ومشروع عن الوطن أمام غزو عدو خارجي، وبشروط أيضاً، الحياة هبة من الله.

❖

الزوجة في باب الشقة واقفة، كأنها عمود كهرباء، متيبِّسة، متخشَّبة، رأسها مدلّى على صدرها، كأنها معلقة في مشنقة، بصوت متقطِّع تكلمني:

ـ فور خروجكم، طلب مني الذهاب إلى الصيدلية لأشتري له دواء لآلام الرأس، رجعت، الباب مغلق، لم يكن معي مفتاح الشقة، أحسست أن هناك ماهو غير طبيعي...

وتجهش في البكاء، تحاول أن تتكلم:

ـ أنا قتلته ....

صوتها يختنق. أود لو أضمُّها إلى صدري، كأنها ابنتي، ولكن أخجل من نفسي. ولا أجد ما أقول.

❖

مخيّلتي تمتلئ... حبلٌ مدلّى من السقف، تحته رزمة الجرائد، هشام بجسمه الصغير الناحل يتدلى بالحبل من عنقه داخل جلابيته البيضاء.... صورة الطفل على الجدار ممزقة... في الحديقة بقايا نارجيلة محطَّمة متناثرة قرب البنفسجات الناعمة الحزينة...... لقد برّ بقسمه، فلن يدخن النارجيلة بعد اليوم...

الحمامات البيض تحلّق في فضاء الريف الحر.

❖

هل أرسل هو إليه مَنْ خنقه، ثم علّقه في الحبل؟!

أحمد زياد محبك

حلب ـ صيف ٢٠١١

الفهرس

الفصل ا لأول - النزول عشر درجات

١. النارجيلة وفردة الحذاء الأسود
٢. الجدة والمأمونية والشعيبيات
٣. الجدة وعروس المستقبل
٤. الزوجة والحقيبة

الفصل الثاني - الصعود عشر درجات

5. رزمة الجرائد والحبل المدلّى
٦. الصورة على الجدار

الفصل الثالث - أمام إشارة المرور

٧. سيارة بيضاء سيارة سوداء
٨. الجلابية البيضاء
٩. ثوب زفافها الأبيض

الفصل الرابع - مع روضة في شقتها

١٠. نوافذ وأبواب لا زجاج لها
١١. سرير الدولارات
١٢. الهبوط على الدرج

الفصل الخامس - مع دلال في شقتي

١٣. زجاجة العطر..والمنديل

الفصل السادس - أمام باب العمارة

١٤. سيارة إسعاف بيضاء

صدر للمؤلف

حركة التأليف المسرحي في سورية، (دراسة) اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٢

من الحكايات الشعبية، (حكايات شعبية) وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٣.

يوم لرجل واحد، (قصص)اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٦

المسرحية التاريخية في المسرح العربي المعاصر، (دراسة) دار طلاس، دمشق، ١٩٨٩

حجارة أرضنا، (قصص) مطبعة عكرمة، دمشق، ١٩٨٩

الكوبرا تصنع العسل، (رواية) دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦

بدر الزمان، (مسرحية) دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦

حلم الأجفان المطبقة، (قصص) اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٦

عريشة الياسمين، (قصص) دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦

دراسات في المسرحية العربية، (دراسة) مطبوعات جامعة حلب، حلب، ١٩٩٧

حكايات شعبية (نصوص ودراسة)اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٩

دروب الشعر العربي الحديث (دراسة) مطبوعات جامعة حلب، حلب ٢٠٠٠ .

لأنكِ معي (قصص قصيرة جداً) دار شمأل، دمشق، ٢٠٠٠ .

طعم العصافير (قصص) دار القلم العربي، حلب، ٢٠٠١.

قصائد مقارنة (دراسة ونصوص) مطبوعات جامعة حلب، حلب، ٢٠٠١.

دراسات نقدية من الأسطورة إلى القصة القصيرة (دراسة)منشورات دار علاء الدين، دمشق، ٢٠٠١

العودة إلى البحر(قصص) اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١.

الرحيل من أجل مها (قصص) اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٣.

انكسارات (بحوث ومقالات) دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٤.

الدكتور أحمد زياد محبك (كتاب التكريم)اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٤.

متعة الرواية (دراسة) دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥.

من التراث الشعبي (دراسة) دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥.

وردات في الليل الأخير (قصص) دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥.

عمر أبو ريشة والفنون الجميلة، (دراسة)، وزارة القافة، دمشق، ٢٠٠٦

قصيدة النثر، (دراسة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٧.

قراءات في الشعر العربي الحديث(دراسة)، منشورات جامعة حلب، حلب، ٢٠٠٧

نجوم صغيرة، قصص قصيرة جداً، مط.الأصيل، حلب، ٢٠٠٦.

ريش نعام، قصص قصيرة جداً، دار الثريا، حلب، ٢٠٠٧.

التفاحة الأخيرة في الحقل، قصص قصيرة جداً، نشر رقمي، موقع ديوان العرب، ٢٠٠٨

اللغة العربية وثقافة القرن الحادي والعشرين، دار الثريا، حلب، ٢٠٠٩

الأعمدة والغزالة، قصص قصيرة، دار الثريا، حلب، ٢٠٠٩.

دراسات في المسرحية العربية، دراسة، مطبوعات جامعة حلب، طبعة جديدة مختلفة كلياً، ٢٠١٠

عصفور من الغرب، رواية، نشر رقمي، موقع ديوان العرب، ٢٠١١.